

وقَد بُعِثتَ لِأجلِي ....

؟؟؟؟

دار كتاب للنشر والتوزيع



مسئول النشر

طارق رمضان

مدير التوزيع

عمر عبد السميع

مدير العلاقات

مها عادل

الطبعة الأولى

الكتاب : إِنَّهُ لَأَنتَ يُوسُفُ

تأليف : ؟؟؟؟؟

تصنيف الكتاب : رواية

مصمم الغلاف : عبد الرحمن سندوبى

إخراج : أحمد عبد الرحمن

المقاس ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع : ????? / ٢٠١٨

الترقيم الدولي : 1 - 34 - 6597 - 977 - 978

العنوان : ٤٧ تقاطع الفلكي مع محمد محمود - القاهرة - مصر

التليفون : ٠١٠٩٧٥٥٣٣٢٨

Email : darkitabone@gmail.com

إهداء

لكل المؤمنين بأن الحب النقي قوة ...

بأن الحب حياة أخرى ..

بأن الحب نور .

وأن النبضة التي ينبُضها قلبٌ عاشقٌ ..

تعادل ألف نبضة من نبضات قلوب كثير من البشر ...

لكل المؤمنين بأن الحب يخلق أبطالًا ...

ولكن أبطال الحب ..

يختلفون .

هذه الرواية من وحي الواقع وأي
تشابه بينها وبين الخيال فهو مع
الأسف...

ها نحن أخيرًا قد وصلنا سالمين إلى ..

حقل الألغام !

ذاك الكم البشع من الجنود المسلحة حولنا..

جعلني أضم الطفلين في رعب

أطبقت جفوني وجف حلقي

فبمجـــرد أن تـــراودني فكـــرة « أني أقـــف الآن عـــلى أرض إسرائيـــل ووســـط هـــذا العـــدد مـــن ســـافكي الدمـــاء « أتخيـــل مشـــهد موتنـــا الـــذي لـــن يترحـــم عليـــه أحـــد

وعـــلي الرغـــم مـــن أني دُعيـــتُ إلى هنـــا والأجـــواء المحيطـــة تشـــير إلى اســـتحالة وجـــود خطـــر علينـــا ... لكنـــي بـــت لا أتوقـــع منهـــم إلا الغـــدر

ثم بدأت أنظر لجميع مَنْ في الساحة

في محاولـــة يائســـة لاســـتعادة وعيـــي مـــن حالـــة الذعـــر التـــي ســـيطرت عـــلي لأرى أهـــم شـــخصيات العـــالم

رؤساء .. وزراء .. سفراء .. ممثلين .. رياضين.. وصحافيين

اطمـــأن قلبـــي نوعًـــا مـــا أنـــه لـــن يتجـــرأ أي جنـــدي مـــن إطـــلاق الرصـــاص هنـــا

فاســـتفقت .. وعـــاد إليَّ الشـــعور بـــالألم الـــذي كان قـــد تملّـــك مـــن جســـدي والإحســـاس بالحـــروق و الجـــراح الصغـــيرة التي به

أنظـر للصغيريـن الّلـذان هدَّهمـا ثقـل البارحـة مـن حريـق وركـض وخـوف

وأرى محاولتهـما في الصمـود معـي للنهايـة فتمـوت بقايـا خـوفي

وأتذكر ..

مشـهد أولادي الثلاثـة الذيـن لم يبلغـوا حتـى مـن العمـر أدنـاه

و هم في أكفانهم البيضاء الملطخة بالدماء

يُردمون تحت التراب

أتذكر ..

أبي الـذي تركنـي آتي بثقـة كبـيرة .. وحـب كبـير .. وخـوف أ كبر

أتذكرك .. يوسف ..

أيـن أنـت الآن ؟ هـل يوجـد أهـم مـن اللحظـة القادمـة في حيـاتي لتكـون بهـا ؟!!

أحتاجك بشدة .. وأشتاقك .

فيُخرجني صوت ما من شرودي ليقول بغضب :

+ أيتها المرأة كيف دخلتي أنتِ وأولادك !!

اخرجي من هنا حالًا

- أنـا لسـت هنـا لأتوسـل لكـم، أو لأتأمـل الزينـة المبهـرة للمـكان أو حتـى لأنتقـم ..

أنـا مدعـوة إلى هـذا الحفـل مثـلي مثـل جميـع الأشـخاص المهمـة التـي تراهـا حولـك

❋ ليقول في استنكار ❋

+ وأين تلك الدعوة؟!

- ها هي ...

فيندهـش هـو بينـما أكمـل أنـا والصغـيران طريقنـا للقاعـة الكـبرى

يمر الآن أمام عيني شريط الثلاث سنوات السابقة

وأبتسم في تعجب من حكمة القدر

التي أتت بي وبكما ..

داخل هذا اللغم الذي يُلقبونه « احتفال السلام « ..

لنفجره

❋❋❋

وكأنني كنت نائمة في كل أحداث عمري السابقة ..

كأننـــي كنـــت في غيبوبـــة طويلـــة جـــدًا توقفـــت عـــن الإحســـاس فيهـــا والتفكـــير

غيبوبة استمرت لما يقرب من ربع قرن من الزمن

واستيقظت فجأة !!

فوجدت أني غارقة ...

غارقة في كل تخاريفي الملعونة

غارقــة دون أن أدرك أن أحــلام اليقظــة -التــي كانــت تحتــل ســاعات يومــي - نعمــة عظيمــة وأن الغــرق والضيــاع ذاتهــم رحمــة واســعة

أنَّ غرفتي الوردية بكل تفاصيلها

ودفــتر مذكــراتي التــي ملأتــه بقصــص عــن فــارس أحلامــي المجهــول

والمرح والابتسامة ..

كانوا أثمن وأروع ما أملك

ووجدتــك .. وجدتــك وأمســكت بــك .. أمســكت بــك لأنجــو ..

أتذكـر أنـك حاولـت إفـلاتي مـرارًا .. حاولـت كثـيرًا أن تقـول لي أن النجـاة في هـذا العـالم شـقاء .. أن السـعادة هـي مـدى جهلـك بكـم السـوء المهيمـن عـلى هـذه الارض

أن اتركيني ..

أنكِ بخير فلا تتبعيني .. لا تبحثين عن الألم .. لا تبحثين عني

لكني تعمدت في كل مرة ..

وبكل غباء ..

ألا أستمع ...

***

ظللت طوال حياتي تلك الطفلة الكبيرة البريئة الساذجة

حتى التقينا ...

وعندها تغيّرت الحياة وتغيّرت أنا .. وتغيّر كل شيء ..

لم أتعلق بِه .. أو حاولت

لم أقـترب منـه .. لكننـا تجاذبنـا دون رغبـة كـما تجتـذب الأقطـاب المتضـادة بعضهـا بعضًـا

هو انتشلني من الغرق .. ولم يكن يريد

أراني كيف يجب أن أحيا وكيف يمكن للعالم أن يكون

في وجوده عرفت معنى أن يبدل مسار أيامك شخص

شخص واحد فقط ...

شخص كان لقاءه صدفة متفقٌ عليها

لم أنظر إليه يومها نظرة العشق تلك

لم يحدث شيئاً مريباً ولم يخفق قلبي فرحًا كما يحدث عادةً في الأفلام التي رأيتها عندما يلتقي اثنان - قُدّر بينهما الحب - للمرة الأولى

كان يوم تقليديًا للغاية، تقليديًا لدرجة مُريحة

تحدثنا فيه أحاديث عادية خالية من المشاعر

لم أكن أدري أن العمر سينقلب بعدها وأتحول إلى شخص أغرب ما يكون عني

وأتساقط ...

كما تفعل ورود الخريف لأعود وأزدهر من جديد بين يديه

فكان وجوده بمثابة بداية ربيع سنوات عمري

أو كما كنت أظن ..

لم يمضي على معرفتي به الكثير حتى أدركت أن هناك أمورًا يجب أن أعيد النظر فيها .. أن هناك أشياء أكثر أهمية ومتعة من كوني أذهب للتسوق

هناك أشياء أكثر وجعًا من أن يتركني حبيبي حزينة

أدركـت أن تلـك الحيـاة أوسـع بكثـير مـن أن أنظـر إليهـا بعـين مراهقـة

كان قدوتي ..

جعلني أرى الإسلام من خلاله ..

أرى حال السابقين الذين أقسم الله بهم حين قال

«وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ»

كان يحدثنـي عـن مسـاعدة الآخريـن، وكـم هـي سـعادة وحينًـا يحدثنـي عـن الظـن الجيـد بالجميـع والتـماس الأعـذار لهـم وحينـا عـن آرائـه الخاصـة

هزّت كياني ..

و جعلـت كل شيء بداخـلي ينهـار ليُبنـى بطريقـة صحيحـة عـلى يديـك

امتلكـت مـن القـوة والصـبر عـلى الصعـاب والشـجاعة مـا يفـوق قـدرتي عـلى تخيـل أن رجـلًا مثلـك موجـود معنـا يحيـا عـلى هـذه الأرض، وأن أمثالـك لم ينقرضـوا بعـد

كنت متواضعًا دائم الابتسام ..

بالمناسـبة كان لديـك ابتسـامة تنـشر في ذرات الهـواء الفـرِح فتجعـل مـن يراهـا يسـعد رُغـمًا عنـه

و بالطبع لن أنسى نظراتك الطويــــــلة للأشياء

وتأملــك لتفاصيــل مــا تقــع عينــاك عليــه وكأنهــا المــرة الأخـــيرة التـــي ســتراه فيهـــا

أنت لديك نظرة لها القدرة على الاحتضان

نظرة لا تُنسى ولا تُروى ...

وكلما مررت بالجوار تجعل الأمور مختلفة

لديك صدق قاتل في كل ما تفعل ..

فكنــت تــؤدي كل عمــل تتــولاه بإخــلاص واتقــان و حــب، لدومًـا لديـك أفـكارك السـحرية التـي تجعـل عسـير الأمــور ســهلًا فقــد رزقــك اللهّ مــن الطيبــة والحكمــة حظًــا وفــيرًا

كنــت كثــيرًا مــا تتــألم لمــا يحــدث حولنــا حامــلًا هــم البــلاد عــلى عاتقــك

وحينًـا أخـرى تتمنـى لـو أنـك تسـتطيع أن تحـارب لتنـشر السـلام الـذي فقدتـه العروبـة

فأنت لديك حمية على بلاد العرب لم أرها في غيرك

ولدومًا كنت تبحث عن الله ...

وتتقـرب إليـه في صـلاة وصـوم .. في ضحـك وفي صـبر وفي مسـاعدة مـن تسـتطيع وفي مـروءة .. وفي ألم

لا أعرف كيف يمكنني وصفك

يكفيك أنك تعرف كيف تجعل من حولك أفضل

كانت محبة الله تتنزل عليك لتجعل من يتقرب إليك يحبك فكان كل من يعرفك يدعو لك بالخير

فقد أعجزتني وأعجزت حروفي

كنت بحق لا إله إلا الله ..

لا تشبه أحداً

أبدًا ..

و لأنني كنت أشعر أنه غريبًا في عالمنا .. اقتربت منه أكثر

أردت أن أعرف سر ذاك الوجع البادي في عينيه

أردت أن ألمس جروح روحه لأمسح عليها بكل عاطفة الأمومة التي عرفتها وشعرتها يومًا .. فتطيب

أردت أن أحتويه فقط وأسعده

لم أعي أني أنخرط فيه بكل ما أُتيت من ضعف

كنت أجبن من أن أعترف أنه مس ذاك القلب داخلي

لا يوجد أي تفسير لما كان ينتابني من ارتباك وتهور وسعادة عند محادثته غير أني عاشقة

لكن لا ..

أأنا لا أأحبك

***

أنا فتاة تمتلك من الدوافع والأحلام الكثير

قريبة من الله وتجاهد بكل طاقتها

لا تـرى متعـة أكـبر مـن أحاديـث الفتيـات الرومانسـية وقصـص العشـق الرائعـة التـي تدمـع لهـا العينـين ..

وأجمـل أحلامهـا هـو زوج يحبهـا ويرعاهـا مثـل كل فتـاة في هـذا السـن

وكسـائر النسـاء في بلادنا كنت أشـعر وكأني عصفورة مقيدة

لا يُسمح لها أن ترى أبعد من حدود قفصها الصدأ

عـلى الرغـم مـن وجـود المفتـاح بـين أجنحتهـا طـوال الوقـت

لكنه الخوف الذي يُزرع فينا و يكبر معنا

كان كافيًا ليجعلها تتنازل عن كل مغامراتها و أصعبها

ولكن منذ أن أتيت أنت

جعلت تلك العصفورة ترى المستحيل

ممكن ..

تـرى الأشـياء أكثـر إيجابيـة لتطمـح وتسـعى بقـوة أضعـاف مـا كانـت تظـن أنهـا تمتلـك

لتجعل النجوم قريبة من أطراف أصابعها

وتلك الكواكب ملك يمينها

فسـبحان مـن خلـق في حديثك وفي وجـودك كل هذا السـحر

وتمر الأيام بيننا ..

وأتبـدل بـين الدقيقـة والأخـرى، تتبـدل أفـكاري ومعتقداتي وعاداتي

لأجد نفسي أكثر تقربًا من الله

لأجد نفسي أسعى لأكون أكثر قوة وأكثر تفاؤلًا

لأجـدني شـغوفة بـأن أقاتـل في سـبيل الحريـة .. أن أدافـع عـن الضعفـاء

لأجـدني أكثـر إحساسًـا بـأبي وأمـي، أكثـر قربًـا واسـتماعًا لهـم وإحساسًـا بهمومهـم

أشاركهم الذكريات والأحلام والحب والمودة

أكثر حنانًا وحبًا للجميع

أيقظـت بداخـلي إنسـانًا أصبـح يـرى الآخريـن أكثـر ممـا يـرى ذاتـه

وكأنني كنت أنتظرك لأصبح أنقى وأكثر عمقًا

لم تكـن تنصحنـي أن أفعـل أو لا أفعـل ... لم تكـن تطلـب منـي أن أغامـر أو أتوقـف

كان فقـط يكفينـي أن أعـرف أنـك تفعـل الـشيء لأفعلـه أفضـل منـك

يكفيني أن أدرك أنك في الحياة لأحاول أن أكون مثلك

يكفيني هذا صدقني

يكفينـي أن تكـون هنـا لأكـون أطهـر إنسـانًا عـلى وجـه هـذه الأرض

يكفيني أن تكون في أيامي

لأجد ذاتي ..

لأشعر بارتياح لا يوصف في قلبي الصغير

لم أصدق أنك لي حبيب أو شيء من هذا القبيل

أنت لم تعبر قلبي ..

أنت عبرت روحي مباشرةً

روحي هي من التقت بك وليس جسدي

لم أكن لأصدق هذا النوع من الالتقاء قبل أن أصادفك

لم يكن حبًا، بل كان شعورًا أجمل

أجمل بكثير ..

أتعلم ..

كلما أتيت في عقلي كلما تذكرت نبي الله يوسف

كم كان لديه من صبر وإيمان بالله ليستطيع أن يغير من امرأة أحبته فتكون بهذا النقاء بعد كل ما كانت تمتلك من نفوذ وقوة وشهوة ورغبة في الانتقام

أنت يوسف هذا الزمان .. هكذا رأيتك دومًا

لكني ..

على الرغم من كل ما شعرت .. لم أتمنك يومًا يا يوسف

لم أتمنك لأني لم أكن يومًا مريم

كنت لي دومًا حلمًا بعيد المنال وكان يكفيني أنك حي تُرزق لاستمر ولأحلم

لكن ما بال قلبي يشتاقك وتضطرب الحياة كلما تجولت بخاطري

وكلما رأيتك ينتابني ضيق وفرح ورغبة ملحة في البكاء

ماذا فعلت يا يوسف لعيني لتجعلها تمطر كلما مررت

أنا لم أحبك

أو أخاف أن أقول أني أحبك

أعـرف أني أراك بطريقـة لا يفعلهـا الآخريـن، فوحـدي أراك يو سف

و وحدي أتألم لك .. ووحدي أخاف منك

لا أفهم ماذا تعني أنت لي

ولا أفهم لما أنت الذي تخلق كل هذا الضجيج بداخلي

لكني في نهاية المطافِ

فعلت ..

***

هناك أشياء إذا أردنا وصفها أنقصنا قدرها بشدة

كالذهب..

إذا أردت وصفـه سـأقول أنـه أصفـر ويلمـع وهنـاك الكثـير مـن الأشـياء صفـراء وتلمـع لكـن الذهـب

ذهب في جوهره ..

لا يمكن وصفه إلا وأضعنا قيمته

وأنت كالذهب يا يوسف

كلما وصفتك جعلت لك أشباه وأنت لا تشبه أحد ا

تلك إجابة السؤال الذي سألته لي

عندما مررت بجانبك وأنا ذاهبة إلى إحدى المحاضرات ..

كنت تتحدث مع بعض أصدقائك وسألتهم كيف يرونك فذكروا جميعهم عيوبك فقط من باب المزاح معك وعندما وجهت إلى السؤال ..

صَمت قليلًا مُبتسمة وقلت شخص هادئ .. وخجول.. و ملتزم

عندها كنت سعيدًا جدًا أن أحدًا ذكرك بالخير

لكني كنت متيقنة تمامًا

أن كلًا منهم يمكن أن يسرد مقالًا طويلًا عريضًا عن صفاتك التي لا مثيل لها

لكنهم اكتفوا بالمزاح معك وأعينهم تلمع من شدة فخرهم بصحبتك

من سوء الحظ أن السنة الرابعة لنا في الجامعة كانت في وقت بداية الثورات

تلك الأيام التي لم ترَ لها البلاد شبيه منذ عقود

الخوف يخيم على كل عائلة ..

يموت الكثير ويُلقي الأكثر في السجون

تحطم المقاهي والمتاجر وتسرق الأموال والبضائع

وفي نفس الوقت الذي بلغ فيه الخطر أقصى درجاته ..

كان التكاتف بين أهل الوطن أقوى بكثير من كل تلك الغيوم

أصبحـت أخـرج مـن البيـت وأتـرك أهـلي يدعـون ويصلون أن أعـود لهم سـالمة

لم أظن أن الأمر قد يصل إلى الهجوم على حرم العلم

ذاك اليوم أبدًا لن أنساه ..

ذهبـت إلى الجامعـة كعادتي و جلسـت أسـتمع إلى المحاضرات وإذا بصـوت طلقـات النـار يـرج الجـدران فيركـض الجميـع في خـوف و يختبـئ ..

وتنطلق شلالات من الدموع ..

لا ..

ليست دموع الخوف

بل دموع الاختناق بسبب الغاز المسيل ..

خرجت في ذهول من كل ما يحدث

يتسـاقط الأشـخاص مـن حـولي مغشـيًا عليهـم و يحملونهـم إلى الـدور السـفلي حيـث مـكان شـبه آمـن حتـى لا يموتـوا مقتولـين أو مختنقـين

و أنا أتلفت حولي بحثًا عنك .. أين أنت الآن يا يوسف

اللهم أنت الستار الحليم ..

الجميع يهتف في وجهي قائلًا ابتعدي واحتمي في حجرة أو خلف مبنى ..

لكني لا آبه لهم

صديقاتي ظللن يصرخن بي أن أختبئ معهن لكني تركتهن يذهبن و قلت لهن أني سأعود سريعًا .. خرجت من المبنى وأخذت أقترب من صوت إطلاق النار و الشجار أكثر فأكثر حتى وجدتك تركض تجاهي

+ أمجنونة أنتِ .. ما الذي جاء بكِ إلى هنا !!!

تعالي معي هيا ..

❋ وركض أمامي بسرعة وجعلني أركض خلفه بنفس السرعة حتى خبأني في أحد الأركان ❋

– مهما حدث لا تخرجي قبل أن أعود إليكِ ..

❋ و هم بالذهاب ❋

+ لا تذهب .. إن ذهبت سآتي معك

– ستأتين معي لماذا ؟

❋ لا أستطيع أن أقول لأني خائفة عليك و أريد حمايتك .. على الرغم من أني لن أستطيع حمايتك حتى و إن أردت .. لكن إن لم يكن من الموت بد .. فلنمت سويًا ❋

+ هكذا ..

أخاف أن أمكث هنا .. وحدي

– لا تخافي .. المكان هنا آمن

+ اسـمعني رجـاءً .. أنتـم تضحون بأنفسـكم و أنتـم تعلمون أن هـذا لـن يغـير مـن الأمـر شيء .. إن ألعـاب السياسـة أكـبر منـا ففـي نهايـة المطـاف سـيحدث فقـط مـا يجـب أن يحـدث « مـا يريدونـه هـم أن يحـدث « .. أنـت بالتأكيـد تفهـم مـا أعنـي

مـا أريـد أن أقـول .. لا تحملـوا هـم البلـد عـلى عاتقكـم و أريحـوا ضمائركـم .. فأنتـم لم تقـصروا .. لكـن .. مـا بأيدينـا حيلـة

+ ....

أيدينا لا تملك حيلة حقًا .. بل تملك حيل

نحن نفعل كل هذا « لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا «

* و هم بالذهاب مرة أخرى *

+ لا تذهب أرجوك .. فأنا خائــ ..

* ــفة عليك .. أعلم أنك لن تستمع إلى ..

أعلـم أن مـا أطلبـه منـك صعـب عليـك، لكـن أتمنـى أن ترحـم قلقـي عليـك الـذي لا تعلمـه

....

تنهـد ووقـف لثـوانٍ معطيًـا إيـاي ظهـره ثـم التفـت إلى و قـال *

+ أنتِ تصدقينني أليس كذلك ؟

– أجل ..

+ و حينـما سـأقول لـكِ أن كل شيء سـيكون عـلى مـا يـرام و أن كل شيء سـينصلح

هل ستصدقين ؟!

– لكن ..

+ هل ستفعلين ؟

– نعم

+ إذن كل شيء سيكون على ما يرام وستكونين بخير

وسأعود إلى هنا و أنا بخير .. لا تخافي

* لقـد شـعر بـما لم أتمكـن مـن البـوح بـه فلـم أسـتطع أن أقـول لـه سـوى *

– حسنًا .. سأنتظرك

+ جيد ..

* وهم بالذهاب بسرعة فناديته مجددًا

شعرت و كأنه يريد أن يرميني بأقرب حجر لكنه- على عكس المتوقع -نظر إليَّ تلك النظرة المليئة بالحنان وابتسم ابتسامته المعهودة وفي هدوء من يفهم ويقدر قال ❋

+ سأعتني بنفسي ..

❋ كيف لك أن تعرف ما سأقول ^ ^!! ..

ابتسمت له أنا الأخرى وأكملت ❋

- سأدعو لك حتى تعود

❋ وذهب ❋

مرت النصف ساعة والساعة والساعتين و هدأت أصوات الرصاص و الشجار وخرجن صديقاتي سالمين ليعودن إلى منازلهن

اطمئنوا على و ودعوني بعد أن أخبرتهن أني سأنتظر حتى أطمئن على أحدهم ثم أعود للبيت أنا الأخرى

لكن غروب الشمس قد اقترب

و لم يعد يوسف

كنت خائفة جدًا، لو كان بخير لعاد ..

بدأت في البكاء وخرجت للبحث عنه

سامحني فليس بإمكاني أن أنتظر حتى أجد جثتك أمامي ..

سرت قليـلًا في الشـوارع الداخليـة للجامعـة بحثًـا عنـه حتى وجدتـه بـين ذراعـي صديقـه مصابـاً بطلـق نـاري في قدمـه

اضطرب عندما رآني ..

و أخــذ ينــادي عــلى لكنــي نظــرت إلى الجهــة الأخــرى و ابتعـدت بسرعـة حتـى لا يلاحـظ أني أبكـي فقـام مـن مكانـه وحــاول الســير عــلى قــدم واحــدة ليلحــق بي

و عندمـا التفـت إليـه ووجدتـه قادمًـا نحـوي ركضـت نحوه حتـى أمسـكه قبـل أن يقـع فالتقطـه صديقـه قبـل أن أفعل

و عندما اقتربت ورأى تلك الدموع على وجهي

+ كنت سآتي ..

تأخرت لكن كنت سآتي .. قسمًا بربي أني كنت سأفعل

انتظـرت فقـط حتـى يضمـض لي صديقـي الجـرح كـي لا يفزعــكِ ..

فيكفــي أنــكِ ســتضطرين لرؤيــة كل تلــك الدمــاء عــلى ملابــسي

أنا آسف لأني تركتك كل هذا الوقت

أنا آسف

حقًا آسف ..

❋ فنظـرت إليـه بعينـين مغرورقتـين بالدمـوع وظللـت عـلى هـذه الحـال لدقيقـة

لا أعـرف مـاذا عـلى أن أقـول .. أخـاف إن أطلقـت لسـاني لا يعـود لفمـي إلا و قـد قـال كل مـا أخبئـه بداخـلي لـك ففضلـت الصمـت ..

تلـك الدمـوع ليسـت حزنـاً أو انزعاجًـا منـك .. تلـك الدمـوع عليـك

لا أعـرف مـن أيـن لي هـذا الصمـود و أنـت أمامـي عـلى تلـك الهيئـة ..

اغمضـت عينـي وأمسـكت حقيبتـي بقـوة كأني أسـتنجد بهـا مـن انهيـار سـينتابني و بـدأت في السـير .. فأخـذ عصـا ليتـكأ عليهـا و آتـى خلفـي ❋

+ لا تذهبي وحدك ..

- أرجوك توقف عن السير ستقع

+ لا يهم .. انتظريني سأحضر حقيبتي وسآتي معكِ

❋ عاد وأحضر أشياءه و آتى ❋

+ هيـا بنـا حتـى لا تتأخريـن أكثـر .. لا أعـرف كيـف يمكننـي أن أكفـر عـن مـا فعلـت

- لا تقل هذا .. أنا فقط كنت قلقة عليك ليس إلا

+ لستِ غاضبة مني ؟

- بالتأكيد لا ..

+ الحمد لله ..

* فنظرت له و ابتسمت .. فابتسم لي

يمكنني أن أفعل أي شيء لأجل أن تدوم تلك الابتسامة على وجهك للأبد *

وصلنا الميدان الرئيسي القريب من الجامعة ورجوته أن يرحل وأخبرته أني سأوقف أي سيارة و سأعود للمنزل، لكنه رفض و انتظر حتى أتت السيارة و ركبت و اطمأن على وظل واقفًا إلى أن بدأت السيارة في التحرك

- أراك غدًا ..

+ بإذن الله ..

عدت إلى المنزل و جلست أبكي وأبكي .. جرحك هذا يؤلمني كما يؤلمك ويزيد عليه وجع قلبي عليك

ذهبت إلى الجامعة في اليوم التالي لكنك لم تحضر .. توقعت عدم حضورك

فكيف ستأتي وأنت على هذا الحال

انتهى اليوم و خرجت من المبني لأجدك في الأسفل تقف مع أحد أصدقائك

و عندما لمحتني من بعيد استأذنت من صديقك وأتيت نحوي مستندًا على عكاز

+ كيف حالك اليوم ؟

- أنا بخير و بأفضل حال .. الأهم هو حالك أنت

+ كما ترين فأنا بخير لا داعي لأي خوف .. اتفقنا

* فتجنبت النظر له في خجل و قلت *

- اتفقنا .. الحمد لله

+ الحمد لله الآن أستطيع أن أتنفس بارتياح .. سأتغيب لمدة أسبوع

- و لماذا جئت اليوم .. كان لابد أن تمكث في المنزل ؟

+ لأجلكِ ..

أقصد ..

أني أخبرتكِ البارحة بأني سآتي اليوم ..

لذا أتيت خشية أن تقلقي أكثر

* لا أعرف كيف يمكنني شكر الله عليك .. لم أرَ قط من يملك مثل ذاك القلب

القوي الشجاع الرحيم الودود *

– أشــكرك كثـيرًا .. هيــا عليــك العــودة إلى المنــزل الآن و اعتنــي بنفســك جيــدًا

+ سمعًا و طاعة ..

❋ وضحك كلينا ❋

ماذا أفعل كي تخاف على نفسك قليلًا يا هذا

فكلما ظهرت مشكلة في الأرجاء وجدتك هناك تحلها

و كلما تأذى أحد وجدتك تقف معه تحميه وتدافع عنه

و كلما حزن أحد وجدتك تهون عليه وتضحكه

و كلــما وقــع أحدهــم في مصيبــة وجدتــك أول مــن يعــين عــلى فــك كربــه

حتى لو لم يكن من المقربين إليك

و كلما اندلعت ثورة وجدتك في وسط الميدان

لكن أفضل ما في الأمر أنه كلما صاحت المساجد بالله أكبر

وجدتك من أوائل المهرولين لصلاة الجماعة

دومًا تسعى سعى الصادقين لتلبي أي نداء للإله

أتذكــر جيــدًا اليــوم الــذي كــدت أن تمــوت فيــه لأجــل الســيدة المســنة

ففـي ذاك اليـوم كانـت الجمـوع انطلقـت تناشـد بالحريـة كـما أصبـح يحـدث كثيرا

و كان يومًا دراسيًا عاديًا ..

أنهينـا المحـاضرة الأولى وفي فـترة الاسـتراحة أخـذت حقيبتـك ورحلـت

فذهبت خلفك خلسة

وجدتـك تخـرج مـن الحـرم لتلحـق بالمظاهـرة التـي مـرت مـن أمـام أبـواب الجامعـة

و فجـأة تركـت المظاهـرة و ذهبـت للسـيدة العجـوز ضعيفـة البـصر التـي كانـت تـصرخ بصوتهـا المُتعـب ولم يسـمعها أحـد في وسـط الهتـاف والصيـاح

فوقفت بجانبها لتهدأها وأبعدتها عن الجميع كي لا تتأذى

وبـدأت تبحـث بـين الجمـوع بجنـون وكأنـك تبحـث عـن إبـرة في كومـة قـش ..

كنـت تبحـث بقلـق و م تنظـر جيـدًا إلى الطريـق فكـدت أن تتعـرض لحـادث لـولا أن حركـة السـيارات كانـت بطيئـة نسـبيًا بسـبب كثـرة النـاس

لا أفهـم مـاذا تفعـل فأنـا لم أسـمع ممـا تكلمتـما فيـه شيء فقـد كنـت واقفـة عـلى أحـد الأرصفـة أراقـب مـن بعيـد

و عندمـا نظـرت أمامـي لاحظـت طفـلاً يبكـي و يحـاول إحضـار لعبتـه التـي وقعـت و تهشـمت تحـت الأقـدام فسـحبته وأوقفتـه بجانبـي

كانت ملابسه يغطيها التراب ووجهه أيضًا

أخبرني أنهم أوقعوه دون أن ينتبهوا و كسروا له لعبته

فأخرجـت زجاجـة الميـاه مـن حقيبتـي ومسـحت لـه وجهـه ويديـه مـن الـتراب

و بعد أن هدأ قال لي : إنه يبحث عن جدته

وأشرت حينها على السيدة العجوز .. فأخبرني أنها هي

ففهمت حينها عن ماذا كنت تبحث أنت ..

أخـذت الطفـل وذهبـت بـه إليهـا فلـم تصـدق أنهـا عثـرت عليــه أخيرًا

بكت السيدة في فرح وضمت حفيدها وقبّلته

حينهـا عـدت أنـت و امتزجـت ملامـح الفرح و الاسـتغراب – مـن وجـودي و وجـود الطفـل بجانـب جدتـه – عـلى وجهك

+ لمـا أنـتِ هنـا .. أليـس هناك محـاضرة بعـد عشر دقائـق ؟!

– هذا ما يجب أن أقوله أنا لك ..

أليس هناك محاضرة بعد عشر دقائق ؟!

❋ فأخذت تضحك ثم قلت ❋

+ أنتِ تعرفين جيدًا لما أنا هنا

سؤالي هو .. منذ متي و أنتِ تثورين يا فتاة

❋ لا أعـرف مـاذا أقـول الآن .. آه لـو تعلـم أني خرجـت خلفـك ليـس إلا

احمر وجهي في خجل وحاولت الهروب من الموقف ❋

– عـليَّ أن أذهـب حـالًا حتـى أسـتطيع الدخـول قبـل أن يـأتي المُحـاضر

❋ فابتسمت لي وقالت ❋

+ حسـنًا اذهبـي .. نتحـدث في وقـت لاحـق و سـأعود أنـا للزحـام .

– متفقان ..

+ في أمان الله ..

– و أنت أيضًا .

حمـدت الله بعدهـا أنـه نـسي الأمـر تمامـا ولم يفتحـه معـي ثانيـةً فأنـا لا أريـد الكـذب وفي نفـس الوقـت ليـس بإمـكاني قـول الحقيقـة .. كنـت في موقـف لا أحسـد عليـه

❋❋❋

كان خبر وفاة أحد زملائنا و إصابت الآخر إصابة خطيرة جعلته بين الحياة والموت مُلقى في رعاية أحد المستشفيات بمثابة صفعة قوية على قلبك

فقد كانوا هم الاثنين الأكثر قربًا منك منذ أن بدأت حياتك الجامعية

كانت تربطكم معًا علاقة أخوة أكثر من كونها صداقة

خِفت عليك جدًا .. كنت أشعر بألمك و كأنه ألمي أنا

ظللت أيامًا لا أراك ..

و لم أستطع أنا أو غيري الوصول إليك .. فأنت لم تجب على هاتفك من حينها

وعلى نهاية الأسبوع الدراسي ..

و أثناء إحدى المحاضرات

إذا بصياح و هتاف شديد في وسط الجامعة

فيخرج جميع الطلاب للمشاركة والمشاهدة أيضًا

و إذا بك محمولًا على كتف أحدهم .. تصيح بل تصرخ بأعلى صوت عندك

ظننت أنك تطالب بحق دماء صديقيك الذين سُرِقوا غدرًا من أحضان عائلاتهم

لكنـك يومهـا كنـت تهتـف مـن أجـل العـرب والعروبـة بأكملهـا ..

من أجل كل الحقوق و كل البلدان المسلمة

و بعـد دقائـق مـن اجتماع النـاس حولـك .. نزلـت مـن عـلى كتفـي الشـاب وذهبـت وصعـدت بعدهـا أعـلى قمـة اسـتطعت الوصـول إليهـا حتـى يـراك الجميع

وأخذت تخطب فيهم بكل شجاعة .. ووجع

لكني لم أسمع وقتها من حديثك شيئًا ..

أنـا فقـط نظـرت إلى صـدرك مُبـاشرةً .. فقـد كان كل مـا يَشـغل فكـري تلـك الكتلـة العضليـة التـي تسـتغيث و لا يبـالي لهـا أحـد .. حتـى أنـت لا تفعـل

أجـل .. لقـد رأيـت قلبـك وهـو يـدق بعنـف .. فتفـور الدمـاء بـين شرايينـه

رأيتـه وهـو يقـاوم التمـزق وتلتـف حولـه الضلـوع لتثبتـه وتربـط عليـه

رأيتـه وهـو يعتـصر مخـبرًا إيـاك أنهـا المـرة الأخـيرة التـي سـيحرك بـك الدمـاء لتحيـا

وأنـه قـد اكتفـى فتنهـره وتأمـره بقـوة أن يسـتمر في النبـض.. فالرحلـة مازالـت طويلة

وما هو قادم من ألم أشد وأطغى

لـن أنسـى نظـرة عينـاك وأنـت في الأعـلى عندمـا وقعـت عـلى ..

تلك العينين الدامعتين قالتا لي سرًا

إنـه لا أحد يسـتطيع أن يرى ما يدور بالداخـل من صراع إلاكِ

إنه لا أحد يرى كم الخراب والتحطم هنا إلاكِ

وإنه لا أحد بإمكانه أن يداوي كل هذا

إلاكِ ..

ولكم ندمت أني لم أصدقهما ..

أنـا حقًـا لم أسـمع خطابـك لكنـي سـمعت الآنـين الـذي كان يخـرج مـن جوفـك مـع كل كلمـة

وسمعت الضوضاء التي صدرت من خلاياك المتهالكة

جميعها تريدك أن تستسلم و أنت تأبى الخضوع

تلـك كانـت المـرة الوحيـدة في حيـاتي التـي أشـعر فيهـا أني تجسـدت إنسـانا

وكأننـا تبادلنـا الأرواح فأصبـح كلا منـا يـرى مـا يخفيـه الآخـر عـن العالمـين

يــرى ضعفــه وآلامــه وأحلامــه ومخاوفــه ومعتقداتــه ومســببات ســعادته

في هذا اليوم تحديدًا ..

عرفت لما تفعل كل هذا، لما تقاوم وبماذا تشعر

في هــذا اليــوم تحديــدًا عرفــت أنــه مــا عــاد بإمــكاني أن أديــر ظهــري كــما كنــت أفعــل لــكل تلــك الأزمــات التــي تحــدث مــن حــولي وأحيــا لا أبــالي إلا بنفسي وأهــلي فقــط

أدركــت أنــه بمقــدوري فعــل أشــياء عــدة طالمــا تجــاوزت فكــرة أنــه مــا باليــد حيلــة

أنــت كنــت محقًــا .. فاليــد لا تملــك حيلــة واحــدة .. بــل تملــك حيــل

أنهيت خُطبتك وصفق لك جميع المحيطون بحرارة ..

راقبتــك وأنــت تنــزل مــن أعــلى وتســير بتعــب حتــى اســتلقيت عــلى أحــد المقاعــد ..

أخذت أنظر إليك وبيني و بينك أمتار ..

و مــا إن رأيتنــي أنظــر تجاهــك حتــى نظــرت في جهــة أخــرى ثــم تركــت المقعــد وذهبــت

فنظرت أنا إلى الأرض في حزن شديد عليك ..

أنـت تعلـم أن بإمـكاني أن أرى فيـك مـا لا يمكـن أن يـراه سـواي فلِـم ترغـب في البقـاء

تعـرف إلى أي درجـة بإمـكاني اختراقـك و إلى أي درجـة هـذا يؤلمني ..

فاخترت أن تريحني و تبتعد

مشـيت أنـا و دموعـي بعدهـا بخطًـا بطيئـة عائـدة إلى المحـاضرة

كـم أطـوق إلى سـماعك تقـول « أنـا بأفضـل حـال » مصحوبـة بتلـك الابتسـامة المنـيرة عـلى وجهـك مـرة أخـرى لكـن يبـدو أني سـأنتظر شـهورًا عـدة لأفعـل ..

يا لها من حياة تنتقي ضحاياها بعناية فائقة !!

فتأخذ منهم أفضل ما لديهم وتتركهم رُفاتًا

لكنك قررت أن تكون أنت المُنتصر

ولم يمـضي سـوى ثلاثـة أيـام ووجدتـك تجلـس بيننا لتسـتمع إلى المحاضرات

فما إن رأيتك حتى اتسعت ابتسامتي ودمعت عيناي

كـم يدهشـني إصرارك عـلى الاسـتمرار يـا رجـل .. أنـت لا تسـمح لأي شيء بهزيمتـك !!

كم أنا فخورة بك ...

- البقاء لله ..

+ شكر الله سعيكِ ..

- كيف حالك ؟

* لتبتسم وتقول *

+ أنا بخير الحمد لله ..

هل لي أن أطلب منكِ أمرًا

- أجل بالطبع ..

+ أريدكِ أن تعتادي ألا تخافي على أحد كثيرًا

فـالله يتـولى الجميـع .. أنـتِ لديـكِ مـا يكفيـكِ مـن همـوم فـلا تزيديهـا

وأمـا عنـي فأنـا اعتـدت الفـراق ليسـت المـرة الأولى ولـن تكـون الأخـيرة

- ربط الله على قلبك برحمته ..

+ آمين .. و على قلبكِ أيضًا

- كيف حال صديقك الآخر ؟

+ تتحسن حالته

- حقًا !! .. كم أسعدني هذا الخبر .. الحمد لله

* لتنظر إليَّ في صمت وتبتسم *

- أنت لست على ما يرام أبدًا ؟

+ ربما الآن .. لكن مع الوقت سأصبح أفضل

- إلى أي مدى ستتحمل

+ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها ..

- ونعم بالله .. لكن الله لم يكلفك بشيء أنت من تكلف نفسك أكثر مما تحتمل

+ ألم أطلب منكِ منذ ثوانٍ معدودة أن تعتادي ألا تخافي على أحد

❋ ربما أفعل .. لكن ليس أنت .. فليس بإمكاني التحكم في خوفي عليك ❋

- سأحاول

+ أتمنى أن تَصدُقِي القول

- غريب أمرك .. لما يزعجك أن أخاف عليك

أأقصد أن أخاف على غيري .. فأنا التي ستعاني لا أحد آخر

+ وأنا لا أريدك أن تعاني .. وخاصةً إن كنتُ أنا السبب

- هذا ليس شأنك أنت .. فتلك آلامي وذاك القلب قلبي

❋ فنظرت إلى ضاحكًا بلطف على عنادي ❋

- لما تضحك ! .. أتعرف

أنـت أيضًـا تهتـم للآخريـن كثـيرًا .. لمـا تريـد منـي أن أفعـل مـا لا يمكنـك أنـت فعلـه ؟

+ أنا خُلقت لهذا .. وكلٌّ ميسر لما خُلق له

أما أنتِ فلا

– ما أدراك ..

لربما خُلقت أنا كذلك لنفس السبب

سـتثبت لـك الأيـام هـذا .. وسـأكمل طريقـك إن توقفـت أنـت عـن السـير

وستعرف حينها أنه كان دومًا بإمكاني التحمل

+ أنا أعلم منذ أن عرفتك أن هذا سيحدث

– تعلم ماذا ؟!

+ أنكِ ستكملين الطريق بدلًا عني ذات يوم

وإن حدث هذا .. أوصيكِ بشيء واحد فقط

إن كُتـبَ عليـكِ فـراق أحـب البـشر إليـكِ وتهشـمت أوتـادك كلهـا

وأصبحـتِ تشعرين وكأنـكِ في هـذا الكـون غريبـة تحاربـين وحـدك بسـيف مـن العصـور الوسـطى وليـس لديـكِ ذخـيرة سـوى القليـل مـن المسـتضعفين المؤمنـين بـكِ الراجـين إيـاكِ

أن تنقذيهـم مـن العـذاب .. وأقبـل عليـكِ الجميـع يحملونـك أثقالهـم وأوجاعهـم فتبحثـين داخلـك عـن بقايـا صـبر أو رفـات قـوة .. أو حتـى بعـض قطـرات الأمـل فـلا تجديـن ..

إيـاكِ وأن تقعـي .. إيـاكِ وأن تتوقفـي عـن السـير .. حتـى وإن أكملـتِ بقلـبٍ نـازف

تألمي واستمري في التقدم ..

سـتجدينني في نهايـة الطريـق .. سـأنتظرك .. سـأداوي لـكِ جراحـك وكأنـكِ لم تتألمـي قـط

* لا أعلـم لمـا أرعبتنـي كثـيرًا جملتـك الأخـيرة تلـك .. أنـت تبالـغ بشـدة حقًـا وتـبرع في إقلاقـي .. لكنـي أخفيـت خـوفي وقلـت مازحـة *

- حسبك حسبك .. أتظنني مثلك أم ماذا !!

ألا تـرى .. أنـا أقـوى منـك بكثـير .. أتـرك أنـت فقـط الطريـق وسـيصبح كل شيء جيـدًا جـدًا

* فأخذت تضحك *

الحمـد لله أنـك اسـتعدت قوتـك وذاتـك أسرع بكثـير ممـا توقعـت

اسـتعدت ابتسـامتك وقدرتـك عـلى العطـاء واسـتعدت أنـا جـزءًا مـن راحتـي

مطمئنــة عــلى الرغــم مــن اقــتراب فراقنــا لأنــك عــدت يوســف الــذي عهدتــه

***

انتهــت الامتحانــات وانتهــت معهــا الســنة الدراســية الأخــيرة لنــا في الجامعــة

ولا أعلم لما فعلت ..

كم سأفتقدك

فلقد حان الوقت لأودعك وأذهب بعيدًا

سأكمل دراستي في أوروبا

إنه أحد أكبر أحلامي الذي حاربت لأحققه

ســأغيب طويــلًا وسأشــتاق إليــك وأنــت لا تعــرف أني سأشــتاقك

أعهــد لــك أن مــا علمتنــي دون قصــد منــك ســيكمل معــي عمــري

وأن مــا رأيتــه فيــك مــن صــبر وإيــمان وثبــات ســأظل أتذكــره عــلى الــدوام ...

وفي اليــوم الــذي كنــت أتمــم فيــه عــلى حقائــب الســفر وجــدت منــك رســالة مكتــوب فيهــا

«هل ستسافرين غدًا حقًا ؟؟»

فتماسكت قليلًا وضغطت على زر الاتصال

ذاك الزر الذي لم أكن أضغطه سوى في الأوقات الطارئة

لكـن الآن أنـا أتصـل دون سـبب يُذكـر ولا أدري مـاذا يجـب عـليَّ أن أقـول :

+ السلام عليكم

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

+ كيف حالك ؟؟

– بخير الحمد لله .. وأنت ؟

+ الحمد لله

– هل هناك شيء يحُزنك ؟

+ أجل

– ما هو ؟؟

+ وكأنكِ لا تعرفين

– صدقًا لا أعرف .. هيا أخبرني ماذا بك ؟

+ أنا حزين قليلًا .. لأنكِ ستسافرين

❋ ألم أقل أنك تبرع في إخافتي .. حسبت أن مكروهًا أصابك

.. تنهدت في اطمئنان وقلت ❋

- لا تقلق عليَّ سأكون بخير

❋ مع ابتسامة صافية حزينة رُسمت على وجهي ❋

+ عديني أنكِ ستعتنين بنفسك جيدًا

- أعدك .. لا تخاف

+ لكني مازلت خائفاً

❋ أنت لا تدري كم تُصعب عليَّ الأمر ❋

- حسنًا .. أعدك أني سأتناول طعامي كله وسأرتدي ملابس محتشمة وسأهتم بأن أنام جيدًا وسأبتعد عن أي شيء يضرني سواء أشخاص أشياء أو مأكولات وسوف أهتم بحضور المحاضرات

وسأقاوم الظروف وأضحي من أجل أن أترك أثر ..

من أجل أن أكون عابر يستحق الذكر

وسوف أتفوق وسأعود إليك شخصًا تفتخر به ..

أعدك بذلك ..

أعدك ..

❋ فتضحك أنت بفرح بينما تدمع عيناي وأبتسم لسماع تلك الضحكة ❋

+ الآن فقط اطمأن قلبي بعض الشيء .. سأتركك لتحضري أشياءك

- حسنًا .

+ لا أستطيع سوى أن أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه

❋ ما كل هذا الدفء الذي خرج مع صوتك في تلك الجملة هل هذا دفء الجملة أم دفء قلبك ❋

- وأنا أيضًا سأستودعك الله ..

+ السلام عليكم

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

ماذا عساي أن أقول لك .. فأنا رُغمًا عني لن أكون بخير ..

لن أستطيع أن أنام جيدًا أو أكل حتى

لن أستطيع أن أبتعد عن ما يضرني .. ليس بعد الآن

ليس بعد ما رأيته منك ..

سأخوض معارك لأدافع عن العرب

لن أدرس فقط

لكن سأكون مشاغبة أكثر مما تتصور

كم ستحزن عندما تعلم أني أخفيت عليك كل هذا

لكني صدقت عندما قلت لك أني سأتفوق يا يوسف

سأعود شخصًا تفتخر به ..

***

تلك المضغة بداخلي لن تدعني أسافر بسلام

رجوت الجميع تركي وحدي أذهب للمطار ووافقوا ؛ لأنهم يعلمون كم أكره لحظات الوداع .. لكن مَنْ سيرجوهم أن يتركوا تفكيري

أبي وأمي .. أخوتي .. أصدقائي

وأنت ..

منذ أن عبرت بوابات المطار وأنا لا أفكر سوى في الاتصال بك لتمنعني مما أنا مقبلة عليه .. أنا لم أعد أريد السفر ..

أنا أريدك أنت ..

يراودني شعور قاتل بأني لن أراك مجددًا

حينها سقطت دموعي معلنة استسلامي للألم

معلنة استسلامي لفكرة عشقك

معلنة وأخيرًا أني .. أحبك

حاولت الإنكار لكني لم أستطع ... فأنا الآن أقولها بكل كياني

أنا عشقتك يا يوسف .. عشقتك ولا يوجد حل لذلك

عشـقتك وكُتـب عـليَّ أن أفارقـك وقـد يكـون هـذا الفـراق أبـدي

فماذا عساي أن أفعل ..

وضعــت يــدي عــلى صــدري ودعــوت الله أن يربــط عــلى قلبــي برحمتــه

وذهبت لأركب الطائرة باشتياق يسبق الفراق

كنــت أشــتاق لكــم جميعًــا وأنــا بجانبكــم .. فكيــف ســأحيا الآن وأنــا بعيــدة ؟!

انطلقنا ومن المفترض أن أكون سعيدة

لكني لا أفكر إلا بك

لا أتذكـر سـوى لحظـاتي القليلـة بجانبـك .. ولأجـل وعدي لك ســأحاول ..

سأحاول أن أتحمل ..

سأحاول أن أكون بأفضل حال ..

***

أنا وغربتي وحدنا الآن

في بلاد جميلة لكنها مُوحشة

لم يسهل عليَّ التواصل مع أسرتي قبل مُضي أسبوع من إقامتي هناك

كنت في كل يوم أذهب للجامعة و أبحث عن عمل صغير لأدبر مصروفاتي الشخصية ثم أعود إلى البيت الذي أقطنه بالحي الأكثر جمالاً في المنطقة

لكني لا أشعر بكل هذا

أريد العودة

هل يمكنني أن أعود فقط لأرى بسمتك ..

أنت لا تعلم أن هذه البسمة وحدها كفيلة أن تعيد إليَّ نفسي للحياة

مجرد تذكرها يجعلني أشعر أن الأمل احتلني من جديد

وأني مازلت قادرة على المقاومة

كم كنت أشعر بالقوة عندما تبتسم وقلبك به أوجاع لا يعلمها إلا الله

لكنك لم تسمح لتلك الأوجاع يومًا بأن تجعل بسمتك تفارقك ..

أتذكـرك في كل خطـوة وأتسـاءل لـو كنـت بـدلًا منـي مـاذا كنـت سـتفعل لأفعـل مثلـك

أسـتيقظ في الصبـاح الباكـر وأنـزل لأهـل الحـي بابتسـامة مشرقـة نـاشرة الفرحـة في الأرجـاء مـن حـولي كـما كنـت تفعـل أنـت

وفي الجامعة الجديدة أعمل بنشاط

ودائمـة المسـاعدة للجميـع والتعـرف عـلى الأشـخاص الجـدد

والتقرب من الأساتذة

وفي عمـلي يُزيـدون راتبـي الصغـير مـع الوقت لأني شـخص مجتهد

لقد اشتهرت في مدة قصيرة في الحي والعمل والجامعة

بـأني الفتـاة الدائمـة الابتسـام .. المتفائلـة إلى الأبـد .. الأقوى والأكثـر تحملًا

لأني أراك أمامي دومًا

لأني أقلدك ..

رغم أن داخلي لا يشبه هذا الظاهر للجميع

لكني تعلمت منك كيف يكون الصبر

كيـف أخفـي كل معانـاتي بداخـلي وأمـضي دون أن يشـعر بهـا الآخرون

فالحقيقة أن أيامي مزدحمة بالمهام

وتمـر عـليَّ ليـالي دون نـوم كـي أسـتطيع الاسـتذكار وفي بعـض الأحيـان أنسـى هـل تناولـت طعامـي أم لا

و لا أسـتطيع التحـدث مـع عائلتـي إلا نـادرًا وتدهـورت أحـوالي الصحيـة كثـيرًا

والنفسية جدًا ...

ورغم كل هذا

أعمل على قدم وساق كي لا أظهر أي تقصير

وهـا قـد اقـترب أول امتحـان لي في الجامعـة وبـدأ التحـدي ا لحقيقي

فكـم هـو صعـب عـليَّ التفـوق عـلى مـن حـولي فمسـتواهم أفضـل منـي بمراحل

ليس فقط علميًا .. بل لغويًا أيضًا

ولكن في قرارة نفسي أعرف أني أقوى منهم وحافزي أكبر

فتحمسـت لهـذا الاختبـار وبـدأت الاسـتذكار كـما لم أفعـل مـن قبـل في حيـاتي كلهـا

فقد أخذت عهدًا أني لن أرضى لتفوقي و إثباتي لذاتي بديلاً

وانتهى الاختبار ..

وعرفت النتيجة

لم أحصل على أعلى درجة

لكني حصلت على المركز الثاني بفارق قليل جدًا بيني وبين الأولى

ومن حينها وأنا وهي في صراع على هذا المركز وعلى الرغم من تلك المنافسة القوية بيني وبينها إلا أننا كنا صديقتين رائعتين أيضًا

ساعدتني كثيرًا وساعدتها

أفضل ما في الامر أني عرفت من سأنافس وما هي قدراتهم ونقاط ضعفهم

فبذلت جهدي لأتحسن فيما هم ضعفاء فيه وفيما أنا ضعيفة فيه

فأصبحت أبذل أضعاف جهدي الطبيعي مما جعلني أتقدم سريعًا ...

إن منافسيني عظماء بحق ليس فقط في مجالاتهم

بل في أفكارهم ومعاملاتهم

تعلمت منهم الكثير وخاصةً من تلك التي تفوقت عليَّ

ومنذ ذلك الحين والأساتذة هناك ينظرون إليَّ بطريقة مختلفة .. باحترام أكبر

و يأخذون بيدي نحو القمة لأنهم أدركوا أني أمتلك فيضًا من الطاقة و المهارات والأفكار .. وأني مختلفة ..

وأن العرب بارعون .. فلقد ترسخ فيهم اعتقاداً « أن العرب لديهم إصرار على الوصول لأحلامهم مهما كانت العقبات » منذ وقت طويل ومع كل عربي يمر عليهم ..

لا يمكنك تصور كم كنت سعيدة وأنا أسمع منهم هذا الحديث الصريح الذي شهدوا فيه بقوتنا ... وكم كنت حزينة بإدراكي لحقيقة ضعفنا ..

تساءلت حينها كيف بإمكان العرب أن يكونوا فخراً لبلادهم خارجها، بينما لا يكونوا سوى عبئًا ثقيلاً وهم في الداخل ؟؟! ..

كيف يكون الواحد منا جيش كامل قادر على إحداث ثورة علمية في أي بلد غربي .. بينما الجميع بالداخل يقومون بثورات ضد المعتقدات واللغة والهوية

ولا يتنافسون سوى في رصيد الحساب البنكي وأحدث الصيحات وعدد المتاجر وأسواق الطعام ؟؟!

هل العيب فينا .. أم في القيادة ..

وإن كان في القيادة .. فمن اختار القيادة غيرنا ؟؟

إنها تلك الدائرة المفرغة .. نحن .. القيادات .. القيادات .. نحن

أصلح الله أحوالنا جميعًا ..

ومع الوقت بدأت التأقلم ..

مع الغربة والبيت الجديد والأشخاص الجدد .. بدأت أتعايش مع الوحدة والألم

وتقبلت حقيقة أن لا أحد من أحبتي موجود وأنك لست هنا ..

وأصبحت أتقرب - مع كل خطوة في رحلة كفاحي الشاقة - من الله أكثر

وفي كل خطوة أشعر أنه يزيد الأمن والسلام بداخلي ..

أنه يقول «لا أحبة جوارك لكن أنا موجود .. أنا الباقي الواسع الحي الدائم»

دومًا أردد لا حَوْلَ وَلا قُوَّة إلا بِاللَّهِ

ودومًا يمدني بالقوة

دومًا أردد إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ

وأرى السكينة والرحمة تتنزل على قلبي الوحيد

دومًا أردد لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ

وأرى الغم والحزن ينقشع برحمته

لم أكن أتصور أن الغربة تحوي كل هذه الطمأنينة

فتـاة لم تتعـدى الثالثـة والعشريـن في بـلاد يدينـون دينـاً غـير الإسـلام

لكن حفظ الله لم يتركني ساعة

فهـو يزيـدني هـدى وثباتـاً وفلاحـاً مـع كل يـوم أقضيـه بعيـدة عـن وطنـي الآن فقـط أدركـت لمـا كنـت أنـت شـديد التقـرب مـن الله هكـذا

لأنـك دومًـا بيننـا كنـت غريبًـا والغربـة تجعـل معيـة الله وحدهـا تحيطـك

فطوبى للغرباء ..

ووسـط كل مـا أنـا فيـه ورغـم التحديـات التـي أمـر بهـا كل يـوم ..

لم أستطع أبدًا التوبة عنك ..

ففـي صـدري .. عشـق .. وخـوف عليـك كبـير ورغبـة في الاطمئنـان تهيمـن عـلى عقـلي

لكني أصطنع التجاهل

فمثلك لا يمكن نسيانه مهما حاولت ..

***

مرت الشهور ثقيلة لكنها مرت

شهر تلو الآخر وأنا أقوى بالله ..

تـزداد مصاعـب الحيـاة والأعبـاء وأنـا أزداد معهـا تحمـلاً وأزداد نجاحًـا في العمـل والدراسـة وتـزداد مكانتـي بـين الجميع

أرى أني – والحمـد لله- صنعـت أساسًـا صُلبًـا مـن الـلاشيء رغم قسـوة الغربـة والظـروف ..

ولكن تدمّر كل ما سعيت لبنائه ..

حينما تجاوزت الخطوط الحمراء واتجهت للسياسة

فليـس بإمـكاني أن أنعـم في ظـل كل هـذا القـدر مـن السـلام والتقـدم ناسـية متناسـية أن أوطـاني وشـعوبها تغـرق في الصراعـات والحـروب والدمـاء

سوريا، ليبيا، العراق، اليمن

وفلسطين ..

القضية المفتوحة إلى أجل غير مسمى

حاولت استغلال كوني في مركز قوة وأني في بلاد الحرية

ويمكنني التعبير عن رأيي المتواضع والدفاع عن القضية

ظننت أني هنا أستطيع أن أصرخ ليسمعني العالم

فانضممـت للكثـير مـن المنظـمات التـي تطالـب بحقـوق العـرب وأصبحـت أتواجـد في المظاهـرات والميادين مطالبـة بحقـوق الإنسـان التـي سُـلبت مـن بـلاد المسـلمين

وهـذا بالتحديـد مـا جعلنـي أتحـول - في نظرهـم - مـن شـخص مُسـالم متفائـل إلى إرهـابي يجـب ترحيلـه

بعـد أن ربطـوا بين ديني وجنسـيتي ومـا أقوم به من نشـاطات

تحولـت في أعينهـم جميعًـا إلى قاتـل وأنـا التـي لا تحتمـل أن تـرى خدشًـا في جسـد أحـد

جميعهـم تغـيرت طريقـة تعاملهـم معـي عـدا تلـك الصديقة التـي كانـت تؤمن بي

هي وحدها تعرفني أكثر مما عرفني هم

رغـم اختـلاف جنسـية وثقافـة ومعتقـدات كلتينـا .. ورغـم تنافسـنا الدائـم

لكنهـا أدركـت وتفهمـت مـا كنـت أعـاني وأشـعر في الوقـت الـذي تجنبنـي الكثـير منهـم والكثير منهـم اضطهـدني و الأكثـر أصبـح يخـاف منـي ..

وبعد مضي شهر ونصف من اشتراكي في المنظمات العربية عرفت الجامعة بالأمر

الحقيقة أن المشكلة لم تكمن هنا ..

فالجامعة لم تعرف حقيقة ما أقوم به من عمل، بل عرفت فقط ما يظنه المجتمع من حولي بي ووجهة نظرهم فيما أفعل ..

لذا طالبتْ بحسم ترحيلي لدولتي

«أنتم لا يمكنكم فعل هذا بي .. وأحلامي ؟!! ...

أأقتلها لأنكم لا تريدون أن تروا الحقيقة بعيدًا عن غشاء العنصرية الذي على أعينكم ؟؟؟ ... أنا مسلمة .. أنا أدين دين السلام فكيف أكون إرهابية هذا دين النور فكيف يمكن أن تروا قلبي مُظلمًا هكذا، دين المحبة فكيف يمكنني أن أفرق بين الأرواح .. ألا تعقلون كيف تكون بلادكم بلاد الحرية كما تزعمون وبها كل هذا القهر»

كانت تلك آخر كلماتي وأنا أتوسل لهم أن يتركوني لأتم حلمي

وسأذهب وحدي كما أتيت

كانت خطيئتي الكبرى أني تكلمت فكل تلك الحرية كذبة كبيرة ليس إلا ...

كيف سأعود بهذا الانكسار

ووعدي لك .. هل ضاع بتلك السهولة !!

«سأعود شخصاً تفتخر به»

هل كان كذب هو الآخر ..

لم أكـن أدرك أن حطـام الآمـال يسـبب جـروح أكثـر مـن عـدم تحقيقهـا

كل القوى بداخلي انهارت وانهرت على الأرض باكية

لا أستطيع الدعاء، لا أستطيع النهوض

لا أستطيع سوى إسقاط الدموع فحسب

وكأن عـذابي كل تلـك الشـهور التسـع كان محـض دعابـة في برنامـج مـن برامـج الكامـيرا الخفيـة والآن مطلـوب مني أن أعـود وكأن شـيئاً لم يكـن

وكأني لم أتغرب وأتذوق مراراً العذاب

وكأني لم أتفوق وأجتهد لأصل للمكانة التي سُلبت مني

وكأني كنت في لعبة والآن انتهى المستوى الأخير وخسرت

وعليَّ أن أبدأ من جديد .. حتى هذه لن يسمحوا لي بفعلها ..

حتى البداية الجديدة حُرمت على ..

أمسكت الهاتف حينها وفتحت رسالتك الأخيرة

«هل ستسافرين غداً حقًا ؟؟ «

يا ليتني لم أتعلم كيف أحلم .. يا ليتني ما سافرت

يـا ليتنـي مـا تركتـك وأنـا أخشـى عليـك مـن اللحظـات والدقائـق أن تسـلبني إيـاك إلى الأبـد ..

يـا ليتنـي مـا رحلـت وأنـا أعـرف أنـك تكـذب .. تكـذب بقـدر مـا تُظهـر مـن ثبـات

يـا ليتنـي أطعـت دقـات قلبـي التـي اشـتاقتك وصدقـت حديـث عينـاك لي وبقيـت ..

يا ليتني لم أقابلك حتى

يا ليتني من غيبوبتي لم أستفق ..

***

أعود أدراجي بالدموع كما تركتُها

كـم انتظـرت تلـك اللحظـة بأمـل كبـير ولكنهـا أتـت بانكسـار أكـبر مـن انكسـاري في غربتـي كيـف سـأواجه الجميـع الآن ... فـكل منهـم يـرى بي حلمـه الـذي تحقـق

كيـف يمكـن أن أخذلهـم هكذا .. كيـف سـأواجهك أنت ؟؟

حسنًا .. لا يوجد خيار آخر ..

أنا لم أعد ..

هـذا هـو الحـل .. سـوف أبتعـد سـوف أبحـث عـن عمـل ومنـزل جديـد ولـن أجعـل أحـدًا يعـرف بأمـر ترحيـلي المريـر

لن أجعلكم تتألمون كما حدث معي ..

لكن هذا أصعب مما ظننت ..

كيـف أكـون في البـلاد ويفصلنـي عـن بيتـي مـا لا يزيـد عـن سـاعة بالسـيارة ولا أذهـب لاحتضـن أمـي وأرجوهـا أن تسـامحني عـلى بعـدي عنهـا كل تلـك الفـترة وأطلـب منهـا أن تطعمنـي بيدهـا ونحـن نشـاهد التلفـاز سـوياً، ثـم أنـام عـلى صدرهـا في سـكون ؟! ..

ولا أذهـب إلى أبي الحنـون لأقبْـل يـده وأشرب معـه كـوب الشـاي الـذي يصنعـه بيده، ثم نتسـامر حتـى يؤذن الفجـر ؟! ..

و لا أصرخ في أخـي وأختـي ليتوقفـا عـن الشـجار معًـا ويذاكـرا قليـلًا ؟! ..

يا الله أنا لم أتألم هكذا من قبل

حتـى ألم الغربـة كان أهـون عـلى قلبـي مـن هـذا الألم، فـالألم في الغربـة كان عـلى أمـل أن أعـود بسـعادة للجميـع وفخـر

لكـن الآن مـاذا .. فقـط مجـرد فشـل ووجـع يسـير عـلى قدمـين منهزمـين

هكذا بت أنا و لا أعرف كيف ستصبح الأوضاع أفضل

بحثـت عـن فنـدق لأقـضي فيـه الأيـام التاليـة مـن حيـاتي التـي أصبحـت لا معنـى لهـا ..

وعندمـا دخلـت الغرفـة التـي سـوف أمـضي فيهـا البضـع ليـالي القادمـة

ألقيـت بجسـدي عـلى السريـر وظللـت أبكـي وأصرخ بصـوت كتمتـه داخـل قطـن الوسـادة .. فهـذا القطـن لـن يسـألني مـاذا هنـاك ولا يعنيـه مـا يحـدث فـوق أليافـه

حتى سمعت صوتاً من خارج الغرفة يُرتل قائلًا

«وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»

وكم لك يا الله من لطف خفي فأنت وحدك المُطلع

زادت دموعـي ولكن ليس حزنًـا .. زادت ندمًا لأني ظننت أني وحـدي في كل تلـك الصعـاب ونسيت أن القوة كلهـا معي تراني وتشـعرني أخـذت أردد رسـالة الله حتـى غشـاني النـوم الثقيـل ..

***

آتى الصباح ..

لأستيقظ وأنا تعلو وجهي ابتسامة واسعة

وكأن جروح قلبي بأكملها خيطت بيد أكثر الجراحين مهارة

لا أعلم في الحقيقة ما الذي حدث

لكن هذا كان أقوى معني ل «إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ» شعرته لتتبدّل دموعي بابتسامة وفرح وصدر مُنشرح

وأول مـا قـررت فعلـه هـو الذهـاب لجامعتـي ليتفاوضـوا مـع الجامعـة في أوروبـا بخصـوص عـودتي واسـتكمال الدراسـة هنـاك مـرة أخـرى ..

فأنا لن أنكسر بتلك السهولة

لكني تراجعت .. فلقد تذكرت أمرًا ما ..

أمرًا مهمًا قد نسيته تمامًا ..

إنها تلك الأمانة التي يجب عليَّ إيصالها إلى أصحابها

فبينـما كنـت أسـتعد للعـودة آتـاني أحـد الأصدقـاء مـن منظمـة كنـت قـد تعاملـت معهـا هنـاك كانـت تختـص بالدفـاع عـن القضيـة السـورية، وطلـب منـي إيصـال ظـرف مـا لا أعلم مـا الـذي يحويـه إلى فـرع هـذه المنظمـة في مـصر .

تركت كل أفكاري وأخذت الظرف وذهبت سريعًا إلى هناك

قابلت رجلاً ما وأعطيته الظرف فطلب مني أن أنتظر قليلًا

وبعد ذلك قابلت المسؤول عن شؤون المنظمة وتحدثنا سويًا

قصصـت عليـه مـا مـررت بـه ومـا حـدث معـي منـذ أن سـافرت فقـال :

+ أنتِ أكثر شجاعة مما يبدو عليكي بكثير ..

سأسألكِ سؤالاً وستتعجبين منه .. لكنه يلح عليَّ ..

إن طلبت المنظمة منكِ السفر إلى سوريا .. هل ستوافقين ؟!

* تبدّلت ملامحي من الابتسامة إلى الدهشة والقلق *

- ولما ؟؟!

+ نحتاج هناك إلى أشخاصًا مثلك .. لن أخفي عليكي فالأوضاع سيئة للغاية ..

لا يوجد مؤشرات توحي بأن تنتهي هذه الإبادة قريبًا ..

وللأسف العجز شديد لدينا في أكثر الأشخاص حيوية في مثل هذا الموقف ..

أعني الأطباء والممرضين

- لكنه ليس تخصصي .. لن أفيدهم بشيء

+ سوف تتعلمين سريعًا .. لا تخافي فهم محترفون .. أنا لا أريد مهارتك بقدر ما أريد إيمانك .. ليس بإمكاني التوضيح أكثر لكن ستعرفين ما أعني عندما تذهبين

- ....

+ سينطلق فوج الليلة إلى هناك .. أي أنه لديكِ بضع ساعات لتفكري .. إن وافقتي سأراكِ أمام هذا الباب في

الثامنـة مسـاءً .. وإن لم تـأتي فسـأعرف أنـكِ ترفضـين العـرض وفي كل الأحـوال سـنكون شـاكرين لـكِ

- وإن وافقت .. متى سأستطيع العودة إلى مصر مُجددًا ؟

+ حينـما سـتدخلين لـن تتمكنـين مـن الخـروج قبـل أن تسـتقر الأوضـاع

- هل هناك احتمال ألا تستقر ؟

+ كبير ..

- هـل هـذا يعنـي أنـه قـد لا أسـتطيع العـودة إلى هنـا قبـل سـنوات ؟؟؟

+ بكل صدق .. نعم

***

ما الذي يحدث ..

كيـف تبـدل مسـاري مـن فتـاة سـافرت لتتعلـم .. لفتـاة يجـب عليهـا السـفر أيضًـا، ولكـن إلى بـلاد تنـزف لتسـاعد عـلى إنقـاذ أهلهـا

مـاذا عـلى أن أفعـل .. هـل أذهـب .. هـل أتغـرب مـرة أخـرى، لكـن تلـك الغربـة لا أعـرف متـى ولا عـلى أي شيء سـوف تنتهـي

قد أموت .. و إن لم أمت ماذا سأقول لأبي وأمي عندما أعود

كيف سأشرح موقفي لهما .. هل سيقتنعان ؟؟

إن توفاني الله أو عدت حية في كلتا الحالتين قد لا يسامحنني

بالتأكيد لن يفعلا ..

في السنوات التي سأقضيها في سوريا

لن أستطيع أن أخبرهما أين أنا أو كيف حالي، لن أستطيع أن أتحدث معهما ليطمئنا أني بخير لأنهما إذا عرفا بأمر سفري إلى هناك لن يجد النوم لهما سبيل

سوف يموتان قهرًا عليَّ

لا كلا ..

القرار في غاية الصعوبة

هناك أبي وأمي وخوفي عليهما وخوفهما عليّ ومستقبلي الذي ينتظر أن أحاول جاهدة لأكمله .. وأنت وشوقي الأليم لك

و هناك « وَ مَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا «

أي الطريقين أسلك !!

لقد أصبحت السادسة وعليّ أن أقرر سريعًا

هل أبقى .. أم أرحل .. وأقضي جزءًا من عمري راحلة ؟؟

حسناً سأفعلها وليقضي الله أمرًا كان مفعولا

أمسكت الهاتف وفتحت الرسائل

وكتبت ..

((أبي .. أنت تعلم كم أحبك .. تعلم هذا أليس كذلك ..

تعلم أني إن قضيت عمرًا فوق عمري بجانبكما سوف أظل أشتاق لك أنت و أمي

لكنك علمتني « إنه إذا كان هناك اختيار فاختاري طريقًا تسلكينه إلى الله» أتتذكر تلك الجملة التي كنت دومًا ترددها لي متى استشرتك في أي أمر ؟ ..

أردت أن أقول لك أني الآن سوف أختار طريقًا إلى الله ..

أتعلم ماذا يعني هذا ؟؟

يعني أنك لا يجب أن تخاف على مهما غبت طويلًا فأنا في طريق الحافظ الرحيم أجل أنا الآن في مصر وأنت ستعرف هذا من تلك الرسالة ..

لما ومتى عدت ؟؟ لما لم آتي لكما ؟؟ الأمر معقد ولا يمكنني شرحه ..

أنا سأسافر مرة أخرى لكن لا أعلم متى سأعود

لن أستطيع أن أتحدث معكما بعد الآن أو أن أخبركما بآخر التفاصيل ..

لكـــن أريـــد أن أقـــول لـــك «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»

أريـدك أن تخـبر أمـي أن تدعـو لي ولا تنسـاني في سـجودها وقـل لهـا «وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ».. لا تنسـاني مـن دعائـك يـا أبي .. و لا تقلـق عـليّ

سـأعود لأرتمـي بحضنـك متى اسـتطعت ذلـك .. أعدك ((

إرسال ..

وتتقطر الدموع من عيني

سـوف يتـألم جـدًا عنـد قـراءة تلـك الرسـالة وأمـي لـن تتوقـف عـن البـكاء ..

اااااااااااااااااه

سامحاني .. أرجوكما

أرجوكما ..

أكثر ما يقلقني

أني بـت أخـاف مـن وعـودي منـذ أن وعدتـك يـا يوسـف، وعدتـك بالكثـير ولم أسـتطع أن أنفـذ أيًـا منهـا فهـل سـأحقق وعـدي لأبي، أم أني قـد أمـت قبـل أن أفعـل

كانت حقائبي جاهزة منذ أن عدت بها

نظرت إلى الساعة ووجدتها السابعة

حسنًا عليّ أن أنطلق الآن

وداعًا أمي وأبي .. سأشتاق لكما هذه المرة أكثر من سابقتها

وداعًا يا يوسف

تمنيت أن أطمئن عليك للمرة الأخيرة لكنك بخير

روحي مازالت قادرة على الصمود ما كانت لتفعل لو لم تكن أنت بأفضل حال

روحي تشعر بروحك أينما كانت لا حواجز بينهما

لكن حواجز الحياة بيني وبينك أنت

تمنيت أن أنظر إليك مرة أخرى أحفر بها بسمتك في عقلي في صورة لا أنساها طالما حييت فعشقي لك عالم وعشقي لبسمتك عالم آخر ..

لكن الله قدر ..

***

كان بداخلي الكثير من التساؤلات

كيف سأسافر معهم بدون أوراق ؟! ما المدة التي ستلزمني لأتعلم في أمور الطب فالأمر ليس مزحة ... و لا يكفي فيه أن أعرف فقط بل يجب أن أتمكن أيضا .. ما هذه

الورطـة ! فهـذا أبعـد العلـوم عنـي وعـن معرفتـي .. و يـا تُـرى مـن الـذي سـوف يتفـرغ ليعلمنـي وهـم في كل يـوم يعالجـون الكثـير مـن الجرحـى و يحتاجـون أعـداداً عـلى أعدادهـم !! و مـاذا سـتكون مهمتـي حتـى أتعلـم ؟

وصلـت إليهـم ووجدتهـم في انتظـاري عندهـا قـال لي المسـؤول

+ كنت على يقين أنكِ ستأتين

- لما ؟؟

+ سأخبركِ ونحن في الطريق علينا أن ننطلق الآن

- ذكرتنـي .. أريـد أن أسـألك بهـذا الشـأن .. كيـف سأسـافر معكـم بـدون أوراقي ؟؟

+ أنتِ أتيتِ بأوراقكِ كاملة

- كيف ؟؟

+ إنـه الظـرف الـذي أحضرتِيـه لنـا صباحًـا .. كان يحـوي أوراق السـفر اللازمـة لـكِ

- أنا لا أفهم ما الذي يحدث ؟؟

+ حسـنًا سـأشرح لـكِ الأمـر .. مـن الواضـح أنـكِ اكتسـبتِ ثقـة زملائنـا الذيـن كانـوا معـكِ في الخـارج.. ممـا جعلهـم يـرون فيـكِ الشـخص المناسـب ليسـانِدُنا

و كان أمـر ترحيلـك بمثابـة فرصـة عظيمـة لنـا .. تعلمـين « مصائـبُ قـومٍ عنـد قـومٍ فوائـدُ » فجهـزوا الأوراق لـكِ لتسـافري برفقتنـا ..

حديثهم عنكِ هو ما جعلني أعرف أنكِ ستوافقين

- أكل هذا حدث ؟؟! لما لم يخبرني أحد بشيء ؟؟

+ كان يجب أن توافقي لأقص عليكِ كل هذا ..

فـإذا كنـتِ رفضتـي الذهـاب معنـا فبـما كان سـيفيدك أن تعـرفي

- ....

+ أنـا لم أقـل لـكِ هـذا لتخـافي منـا .. نحـن لا نضمـر لـكِ أي شر .. أنـا قلـت لـكِ لمـا نحتاجـك معنـا بـكل صـدق وهـذا الأمـر لم أخفـي عليـكِ أي شيء بخصوصـه

- حسنًا لا بأس هيا لنذهب

+ أجل .. هيا بنا .

الآن سأسافر ..

سأسـافر وأنـا أعلـم أني أضحـي بشـبابي .. أني أضحـي بأعـوام مـن عمـري كنـت لأتـزوج فيهـا وأنجـب أطفـالاً أنقيـاء أنظـر إليهـم وأنـسي آلامـي

كنت لأنجح فيها وأعمل وأحيا حياة سوية .. حياة هادئة وجميلة و روتينية بعض الشيء لكنها حتمًا أكثر سعادة من ما أنا مُقدمة عليه

حياة .. تتمناها كل فتاة ... حياة .. تمنيتها أنا ذات يوم وبشدة ...

و لكن الآن أنا أسير على طريقي إلى حياة آخرى

حياة مليئة ببرك الدماء .. الدماء و ليس شيئاً آخر

دماء تُستباح في أرجاء المدن ..

دماء على الطرقات .. وفي المنازل والمستشفيات والمدارس

دماء على الأرصفة .. وفي الشوارع والأركان

في السيارات وفي المتاجر

في أيدي الأمهات وعلى وجوه الصغار

دماء على فساتين الزفاف وعلي صدور الرجال

حياة ..

حيث اللون الأحمر هو اللون المعتاد على الحوائط والملابس والسرر ...

على أمنيات الصغار ... وبقايا الأحلام وجثث الموتى

حياة ..

حيث الدموع هي نداء الوداع الأخير، هي السبيل للتعبير عن الوجع

السبيل الوحيد الذي لا يتسبب في قتل صاحبه

حيث الصرخات تملأ المكان

صرخات تشهد على أصاحبها يوم القيامة أنها صعدت من قلوب مؤمنة أدماها الفراق .. فراق أقرب الأقربين ..

أكاد أقسم أن نصف أولئك الأشخاص لم يتركوا الحياة وينتحروا - من شدة ما عانوا - سوى رغبةً في رضا الرحمن حتى لا يُعذبوا دنيا وآخرة

و لا أظن أنه يوجد سبب آخر ليكملوا من أجله

رأيت كل هذا أمام عيني في طريقي إلى المشفى بعد دخولي إلى البلاد ..

كل هذا رأيته في غضون الساعة والنصف لا أكثر

كيف يمكن أن تكون سنينكم بهذا الشقاء ؟!! .. كيف تتحملون ؟!!

كيف تكونون من أحباب الله المقرَّبين بتلك الطريقة حتى يكون بلاءكم عظيم إلى هذا الحد ؟!! .. و كيف سيكون عقابنا جميعًا على ما يحدث لكم ؟؟

لم يوقظني من دهشتي سوى نحيب سيدة ملأ الأرجاء

«أرجوكم أغيثوا زوجي»

جملتها التي لم تتوقف عن الصراخ بها منذ أن دخلت المشفى

لكن .. زوجها .. زوجها رحل .. رحل بعيدًا جدًا ..

و لم يستطع الأطباء والممرضون أن يخبروها، في انتظار أن يهدأ روعها بعض الشيء

لكن بالنسبة إليّ اختلف الوضع قليلًا .. فلقد انتابتني غصة قوية لرؤيتها تعتصر من الخوف و الألم إلى هذا الحد فذهبت لها وأخذتها بين أحضاني

فقالت لي بصوت متقطع بسبب بكائها وشهقاتها المتواصلة

«أنا لا أهل لي .. ولا أطفال .. لا أحد غيره .. ليس لي سواه ..

هو من يرعاني ويحميني .. هو من يصحبني إلى الأطباء رغمًا عني ويذكرني بمواعيد الدواء ويتحملني متى اشتد عليّ المرض فيتولى المنزل ويطهو الطعام ويغسل الصحون .. ثم يجلس جواري ويقرأ لي في كتب الفنون التي كنت أدرسها .. هو أعظم رجل في هذا الكون كله .. هو الوحيد الذي أحبني وقَبِل أن يتزوجني رغم عقمي .. ورغم مرضي الذي لا شفاء منه .. هو من غمرني بحنانه .. هو من كان دومًا يجعلني ابتسم واضحك في غمرة بكائي وحزني .. هو ابني وصديقي وحبيبي

وزوجي وعائلتي وكل شيء .. أرجوكِ أخبريهم .. أخبريهم أن يفعلوا أي شيء لينقذوه .. أخبريهم أنه روحي فكيف سأتمكن من الحياة إن حدث له مكروه ..

ماذا سأفعل إن خسرته .. فالموت عليّ أهون .. رحماك يا رب»

ضممتها أكثر وأغمضت عيني لتسيل دموعي في صمت

يا الله أنت تعلم أني لا أحتمل أن أكون عاجزة

كيف يمكن أن أقف وأشاهد فحسب .. لابد أن هناك شيئاً ما يمكن أن أقوم به

فصرخت في رجاء

« ألا يوجد ما يمكن أن نفعله .. بالتأكيد هناك حل ما »

فاندهشوا من قولي لأني أعرف جيدًا حقيقة أن زوجها .. مات

فأخذوا السيدة من بين ذرعاي وأستأذنني طبيب منهم ليتحدث معي

+ حسنًا .. ما هذا الذي قلتِ ؟!

- ماذا قلت ؟! .. ألم ترى كيف كانت تبكي وتنوح !!.. لم أحتمل .. أمات قلبك يا أنت

+ بلى رأيت ..

لكنـكِ سـوف تريـن هـذا كل يـوم وكل سـاعة وكل دقيقـه فـماذا سـتفعلين ؟

- بالطبع لن أنتظر حتى أرى هذا كل دقيقة ..

كيف استطعتم أنتم الانتظار كل هذا الوقت ؟

+ وماذا كنا سنفعل برأيك ؟

- أنتـم لسـتم بقليلـين ... كان بإمكانكـم تغيـير الأوضـاع.. حرروهـم .. حاربـوا .. افعلـوا أي شيء لكـن لا تضعـوا أيديكم في أبـرد كأس مـاء

وتكتفـوا بمعالجـة الجرحـى فقـط ظنًـا منكـم أنكـم تفانيتم في أداء الأمانـة التـي وُكلتـم بها

* ليضحك هو ويقول *

+ إن كنـا نسـتطيع فعـل المعجـزات كـما تظنـين بعددنـا هـذا لاسـتطاع أهـل البلـد قبـل أن نـأتي نحـن إلى هنـا أن يفعلـوا ..

- وماذا ينقصنا ؟؟

+ يبـدو أنـكِ تجهلـين طبيعـة مـا يـدور حولـك في هـذه البقعـة

قـد يتـم إبـادة قريـة كاملـة بأطفالهـا ونسـائها ورجالهـا وزرعهـا وحيواناتهـا بمجـرد قصـف واحـد وأنـتِ تقولـين عدد

توقف العدد عن التفوق يا آنستي إن الأمر بات أشبه بالفخ الذي يزداد عمقًا مع الزمن .. كلما ازداد العدو تقدمًا كلما كان التحرر مستحيلًا ..

فكيف إذا كانت العدو من الداخل والخارج ..

فكيف إذا كنتِ تقاومين دول عظمى

وأنتِ وحدكِ أضعف من أضعف من أضعف أضعفهم

انسي فكرة أن تُحل الأوضاع

فلتعتادي الأمر وتساعدينا أو لتعودي من حيث أتيتِ وشكرًا لخدماتك مقدمًا فنحن نعاني بما يكفي ..

❋ ألقى تلك الكلمات على أملي وتركني وذهب ❋

كيف استطعت أن تقول أنه ليس هناك مفر

كيف يمكنني أن أصدق أنني سأظل أرى تلك الأوجاع طالما أنا هنا

كيف يمكنني أن أصدق أنه كُتب على الجميع أن يُقتلوا هم وأولادهم وأحفادهم ولا يُسأل عن دمائهم مخلوق .. لقد مر على قدومي ساعات ولم أحتمل ما رأيت

فكيف سأجلس هكذا لأعوام قادمة لا أحرك ساكنًا

ليس بمقدوري سوى أن أشفي جروح من استطعت ببعض القطن والأدوات الطبية ومقص وشريط لاصق !!!

أي منطق وأي عقل الذي يستوعب هذا

هل هذا هو الدور الوحيد الذي أستطيع أن أقدمه أمام كل هذا الظلم !!

بالتأكيد هذا هراء

يجب أن أفعل شيئًا لتعود قادسية الله في خلقه لتلك البلاد

لتعود الدماء أغلى من أن تُسال بتلك البشاعة

لن أتوقف عند مداواة جروح الجسد

سأتعمق إلى تلك الجروح التي لم تستطيعوا لمسها بعد ...

***

وضعت رأسي على الوسادة وعقلي في مكان آخر

عندما كنت أشاهد الأخبار عن ما يحدث لم أكن أدرك أن رؤيتي له بأم عيني ستكون صادمة لتلك الدرجة .. لم أتصور ذلك الواقع رغم أني دائمًا كنت أراه، لكن الأمور على طبيعتها لدومًا تختلف ..

كنت مجرد مُشاهد يحزن لخمس دقائق وبعدها يغير قناة التلفاز لينسى كل ما شاهده ويضحك على العرض الحالي... كيف كنت من أولئك المشاهدين يومًا أراقب في حسرة فقط .. كيف كنت أستطيع أن ..

توقف يا عقلي أرجوك دعني أنم فقد كرهت ذاتي بما يكفي

ومن تظنين نفسك ؟؟

أجيبي عليّ ..

كيف تتمردين على الجميع هكذا وتتهمينهم بالضعف والتقصير

فماذا تظنين نفسك فاعلة أكثر مما فعلوا ؟

هيا أخبريني .. هل لديكِ قوة خارقة لتدمري كل الأسلحة

أم أنكِ تمتلكين الدرع الواقي الذي سوف تحيطين به المدينة لتحميها من أي سوء

سحقًا .. ماذا حقًا أظن نفسي فاعلة ..

فقط أغضب وأثور وأصرخ فيهم وماذا بعدها .. لا شيء .. حتى أني لا أستطيع أن أقوم بعملهم الذي استهزأ به.. فيالا السخرية !!

أنا لست سوى متمردة جاهلة .. لا أصلح إلا للتمرد فحسب

لكن كيف سأصلح ما يتم إفساده لا أدري ولم أفكر حتى

وأثناء لحظات حزني وتخبطي ذهبت لاطمئن على السيدة .. أم أقول الأرملة

فأخبرتني إحدى الممرضات أنها لم تتحمل الخبر ... وتوفاها الله

بلى تقصدين لم تتحمل الغربة وهي في بلادها ؛ لذا جاءها أمرُ الله لترتاح من مثل هذا الشعور لتكون بها انتهت دائرتها الصغيرة

يا الله ..

لا أستطيع النوم، اليوم ثقيل على نبضي

أشعر أن صدري ضيق وأن الدموع اختنقت في حنجرتي

هل سأمضي كل الأيام القادمة بهذا المنوال ؟؟

يُقتل الجميع أمامي وأنا أصرخ وأتألم لذويهم

فيُصمتني الأطباء لأني لا أفعل شيئاً سوى أني أزيد من أوجاعهم

ثم يطلبون مني حلاً آخر وأنا يصيبني الخرس بعدها

هيا تنهدي كثيرًا فهذا هو ما تمتلكين الآن .. فلا حيلة أخرى لكِ

تقبلي الأمر وقومي بعملك الذي تدعين بأنه بسيط وداوي جروح المرضي وقللي من الدماء المُهدرة وقللي من أعداد الموتى ..

لأنكِ لا تستطيعين أن تمنعي تلك الدومينو من التحرك

ليسقط أحدهم ويموت فيسقط الآخر

ثم الآخر .. ثم الآخر .. إلى أن تنتهي كل القطع

وهكذا سيظل الحال هنا حتى تسقط الجثة الأخيرة ..

***

يأتي الصباح الجديد على ..

وأنـا مازلـت مسـتيقظة، لا أظـن أن النـوم سـيكون أمـرًا سـهلًا بعـد كل مـا حـدث

لكن اليوم هادئ نسبيًا

جلست مع إحدى الطبيبات لتعلمني بعض الأساسيات

وأرسـلتني بعدهـا مـع ممرضـه لتُكمـل لي وتسـاعدني في أن أجـرب مـا تعلمـت

كنت صامته معظم الوقت .. أنظر فقط .. لا أناقش ولا أسأل

أكتفي بحركات بسيطة بيدي ورأسي

تفتـت كل مـا كنـت أحـاول إصلاحـه بعـد صدمـة ترحيـلي وصدمـة فراقـي لعائلتـي الـذي لا أعلـم متـى سـينتهي وتفتحـت كل الجـروح التـي كنـت أحـاول أن أخبئهـا

أُحدث نفسي وأخبرها أنها عليها المقاومة

لكنها ترفض أن تسمع ..

استأذنت من الممرضة ..

أخبرتها أني أشعر بالتعب وتركتها ورحلت

لا أريد البقاء أكثر فلم أعد أسمع أي شئ مما تقول ..

ذهبت لغرفتي داخل المشفى ..

من المفترض أني أسكن هناك منذ أتيت لحين إشعار آخر وضقت ذرعًا من الأفكار التي تراودني فخرجت خارج المشفى وهذا كان ممنوعًا عليّ في الوقت الحالي لكني اعتدت كسر القواعد مُؤخرًا ...

و عندما توقفت أمام الباب الخلفي

شاهدت الدمار حولي فخرج كل الضيق من داخل صدري بدموع متلاحقة

لا أستطيع إيقافها ..

أن تجري الحياة من حولك و أنت مُقيد ..

رغم أن يداك حرة وعيناك غير معصوبتان

و لسانك منطلق وحنجرتك مازالت قادرة على الصراخ

هذا هو العجز

قمة العجز ...

ووسط فوضي من الأفكار والمشاعر، ووسط الدموع المتناثرة

تسـقط عينـي عـلى ضحـكات .. ابتسـامة ذكرتني بابتسـامتك يا يوسـف

ذكرتني بك وأنت تضحك

لتزداد نبضاتي فرحًا ...

ويبدأ قلبي في الانتعاش بعد أن دفنته الأحزان

مُجرد تذكر ملامحك كافي بأن ينزعني من قبر الوجع هذا،

ما أروع أن ترى ضحكات في عتمة الضحايا تلك

ما أجملكم أيتها اللآلئ ..

خمـس أطفـال في عمـر براعـم الـورود يلعبـون .. يضحكـون .. وكأنهـم ذاهبـون إلى الجنـة، وكأن الأرض مـن حولهـم لم تتـشرب دمـاء حتـى اكتفـت

وكأن الجـمال اختلـط كلـه ليكُـون عالمـاً يحيطهـم وحدهـم .. هـم فقـط يسـتطيعون رؤيتـه .. فمـن المسـتحيل أن يكونـوا بتلـك السـعادة و هـم يـرون مـا نـراه نحـن .. بالتأكيـد غشـى الله عـلى أعينكـم لـتروا نـورا و جنانـا مـن فوقكـم وأسـفل منكم

ذهبـت إليهـم ودموعـي لم تجـف بعـد لينظـروا إليّ باندهـاش، وكأننـي أفعـل شـيئاً غريبـاً .. أنـا أبكـي !! .. وهـذا هـو الأغـرب لديهـم

كيف تبكين ونحن داخل كل هذا النعيم

يمكننـــي أن أتفهــم دهشــتكم أيتهــا النورانيــات الصغــيرة مســحت دموعــي سريعًــا وأطلقــت سراح بســمتي بعــد كل تلــك الأيــام مــن الســجن

– هل يمكنني أن ألعب معكم ..

+ نحن لا نلعب

* أجابني كبيرهم *

– ماذا تفعلون إذن و على أي شيء تضحكون ؟!

* تســاءلت مــع ابتســامة تــزداد اتســاعًا ونظــرة ســعادة في عينــي *

+نحــن كنــا نعمــل حتــى ســقط أخــي فأخذنــا نضحــك جميعًــا حتــى هــو

* بذاك الصوت البريء المليء بالمرح *

– وماذا تعملون ؟

+ كنا نجمع العملات الموجودة تحت التراب

– ولما ؟!

+ لأننا نحتاج المال

– تحتاجون المال !!

* صوت ينادي من عند أبواب المشفى *

+ آآآآنستي

* لتأتي إحدى الممرضات مهرولة نحوي في خوف *

+ كيف خرجتي إلى هنا ؟

- من الباب الخلفي

+ ولما فعلتي ذلك ؟؟

- هــل أنــا هنــا مجرمــة أو مــا شــابه لأظــل مســجونة داخــل غرفتــي لا أخــرج منهــا

+ كلا يا آنستي ولكننا نبقيكي بالداخل لنحميكي

- تحمونني !! أتبقونني بالداخل لتحمونني وهذه الأطفال الصغيرة تظل بالخارج ؟!

+ يــا آنســتي لمــا تتحدثــين معــي بتلــك اللهجــة وكأننــا نتركهــم هنــا ليُقتلــوا أنــتِ لا تعرفــين شــيئاً عــن الأحــوال الداخليــة للبــلاد نحــن نعلــم أن إبقائهــم هنــا اليــوم لــن يكــون خطــراً عليهــم فتركناهــم يلعبــون

ولكني ملزمة بتعليمات تجاهك يجب عليّ ألا أخالفها

- وأنا لن أعود لأي مكان وسأظل معهم هنا

+ حســنًا كــما تشــائين لكــن أرجــوكِ أن تدخــلي متــى انتهيــتِ حتــى لا تتســببي لي بإيــذاء

* لتسير مبتعدة عني *

– انتظري أرجوكِ .. أنا آسفة .. لم أقصد ما قلت .. سامحيني

+ لا داعي للأسف لم يحدث شيء

– أنا أعاني فقط من ضغط نفسي شديد فاعذرِيني على ما فعلت

+ أنا أعلم هذا وأتفهمه .. ستعتادين الحياة هنا شيئًا فشيئًا

– أشكرك كثيرًا .. لكن ما هي قصة هؤلاء الأطفال ؟

+ هؤلاء الأطفال الخمسة أخوة .. قُتلت والدتهم من أشهر وبعدها أصيب أبيهم بمرض شديد ونُقل إلى مستشفى كبير في إحدى المدن و نحن ننتظر حتى تهدأ الغارات ونخرجهم لأقرب دار للأيتام ..

حاليًا نحن نبقيهم في منزل قريب من المشفى هنا ونذهب لهم بين الحين والآخر حتى نهتم باحتياجاتهم

– لا حول ولا قوه إلا بالله ..

+ لا تقلقي عليهم كثيرًا فالأطفال في هذا العمر لا يدركون معنى الموت أو فقدان الأب أو الأم .. هم فقط يخافون الوحدة ونحن لا نتركهم وحدهم ؛ لذا هم بخير فلا تخافي عليهم .. ألا ترينهم كيف يبتسمون رغم كل شيء ؟؟

* أجـل رأيتهـم يبتسـمون رغـم كل شيء كـما كان دومًـا يفعـل لكـن هـذا لا يعنـي أنهـم لا يتألمـون .. كان دومًـا يبتسـم لكـن الدمـوع لا تفـارق قلبـه *

- حسنًا هل تسمحين لي أن أظل معهم قليلًا

+ أجل كما ترغبين ولكن لا تتأخري أرجوكِ

- حسنًا لا تقلقي

+ شكرًا

* وتعود للمشفى *

- حسـنًا يـا ملائكتـي فيـما كنـا نتحـدث .. أجـل أجـل تجمعـون المـال

لما تجمعون المال ؟

+ مـن أجـل أبي المريـض .. نحـن نريـده أن يعـود ليكـون معنـا

ونعلـم أنـه يحتـاج الكثـير مـن المـال لكـي يفعـل .. لـذا نجمـع لـه المـال

- وكيف عرفتم ذلك ؟؟

+ من أولئك الغرباء الذين يُحضرون لنا الطعام

* وأضحك على بساطتهم في التعبير *

– لا تقلقوا سيكون أبيكم بخير .. أأطلعكم على سر ؟

+أجل

* لينظروا إليّ نظرة فضول جعلتني أضحك بعمق *

– ليس المال هو ما سيجعل أبيكم يأتي

+ إذن أي شيء سيجعله يعود ؟

* بصوت منخفض جدًا *

– إنه الدعاء

+ الدعاء !! .. وكيف نفعل ذلك ؟

– هكذا ...

* وارفع يدايَّ الاثنتين أمام وجهي في وضع الرجاء *

– يا رب اشفي لي أبي

الله وحده هو القادر أن يفعل لكم كل شيء وأي شيء تطلبونه ،ولكن بشرط أن تطلبوه بصدق وبشد ودائـمًا، ولا تيأسوا من الطلب مهما تأخرت الاستجابة

+ حسنًا سنفعل ذلك

* وعلى وجوههم ابتسامة أمل رائعة كمن وجد حلاً لجميع مشكلاته *

كان الأخـوة الخمسـة فيهـم صغيرهـم ذو الثـلاث سـنوات وأوسـطهم ثـلاث توائـم ذو الخمـس سـنوات بنتـين وولـد، وكبيرهـم ذو الست، لقـد عرفـت عنهـم كل شيء مـن الممرضة بعـد أن رجعـت إلى المشـفى لأنهـم أرادوا أن يُعيـدوا الأطفـال إلى منزلهـم.

- هل يمكنني أن أكون أمهم الجديدة

+ ماذا ؟؟

-أريـد أن أعتنـي بهـؤلاء الصغـار في كل شـؤونهم .. أريـد أن أكـون أمهـم

+ حقًا ... هل تقصدين فعلًا ما تقولين ؟

-أجـل وأتحمـل مسـئوليتهم كاملـة ؛لـذا لا داعـي أن يذهبوا لـدار الأيتام

+ إذن لكِ حرية الاختيار .. كما تشائين

***

منـذ ذلـك الحـين بـدأت أتعلـم أن أفـرح مـن جديـد .. أن أحيـا مـن جديـد

لم أكن أعلم أن تكون سعيدًا موهبة قد تفقدها يومًا

لقد أعاد هؤلاء الأطفال إليّ نفسي ..

كنت أعتني بهم .. أطعمهم وألعب معهم وأهتم بهم ..

وأتركهـم لأعمـل في المشـفى قليـلًا ثـم أعـود إليهـم باشـتياق كبـير

رأيـت فيهـم صغـاري المسـتقبليين .. لم أكـن أعاملهـم كأم .. بـل كنـت أشـعرهم كأم وأحبهـم كأم ... وأرعاهـم كأم ..

فطرتنا التي خلقنا الله عليها

الأنثى من قبل أن تُولد هي أم حتى ولو لم تنجب

كنت أسرد لهم القصص وأنام قبلهم أحيانًا من شدة التعب

وعندهـا يتركوننـي وهـم يضحكـون ويخرجـون ليكملـوا لعبهـم خـارج الغرفـة

هؤلاء الأشقياء كم عشقتهم

كنـت أجلـس معهـم لأعلمهـم الأحـرف والأرقـام والقراءة والكتابة

وأصرخ فيهم أحيانًا .. وأغضب منهم أحيانًا ..

وأضحك منهم وعليهم كثيرًا ..

من براءة أفكارهم وتساؤلاتهم التي لا معنى لها

أحيانًـا تكـون فضوليـة.. وأحيانًـا مضيعـة للوقـت وهروبًـا مـن التعلّـم

كما يفعل الأطفال دومًا

هـم مصـدر الغضـب و التعـب الأول ومصـدر الراحـة والطمأنينـة الأول أيضًـا

مصـدر الخـوف و القلـق ومصـدر البهجـة والنقـاء الـذي يشـع مـن وجهـك

والسعادة الغريبة الغير مبررة داخلك

هم سبب تناقض المشاعر الدائم الذي تعيشه

أدركت معنى الجملة التي تقولها كل الأمهات

«غدًا ستكونين أُم وستفهمين «

أدركتها مبكرًا ...

كنـت أخـرج معهـم ليلعبـوا وأعـود طفلـة كثـيرة اللعـب والضحـك

كانـوا سـعداء بي وبوجـودي بجانبهـم .. وكنـت سـعيدة لما شـعرته بقربهـم

في كثـير مـن الأوقـات كنـت أجلـس شـاردة كل مـا أفعلـه أني أتأمـل تلـك الملامـح

بعفويتها ونقاءها فهم يشبهونك كثيرًا ...

أو أنت الذي كنت تشبههم

كنت تحوي روحهم .. فرحهم .. ضحكاتهم ..

وسلامة نواياهم .. خوفهم من الله وحبهم له

واستعانتهم الدائمة به ... وسعادتهم الشديدة برعايته

هم لا يرون البشر

لا يضعونهم في الحسبان ولا يسمعون لهم ولا يهتمون

فقط يفعلون ما يشعرون .. فتصدر أفعالهم مليئة بالسلام

ويقولون ما يحبون ...فتخرج كلماتهم صادقة وطيبة

هكذا كنت أنت

ربما كان حبي لك نابع من فطرتي

ربما أحبت الأم بداخلي الطفل بك لهذا كنت أشعر تجاهك كل هذا الحنان والتعلق .. أو ربما ما حدث هو العكس و أحبت الطفلة بداخلي الأب بك

علي أي حال

أنا لم أقتنع يومًا أن ما شعرته تجاهك كان شعورًا تقليديًا

ففي شعوري تجاهك شيء خاص ..

لم أدرك معناه .. لكنه من فرط قوته .. تملكني ..

كم أشتاق إليك ..

***

مع اقتراب آذان العصر

كانت هناك حركة غير معتادة في المشفى

و عندما تساءلت ما الذي يجري

أخبرني طبيب أنه هناك – في إحدى مناطق حلب– الكثير من القتلى والجرحى نتيجة قصف حدث صباح اليوم وأنهم يحتاجون الدعم العددي فقلت له أني سآتي معهم.

أخذت حقيبة تحوي بعض الأدوات الطبية واستعديت للخروج ففوجئت بالأطفال يقفون عند باب المشفى في انتظاري

– ماذا هناك .. ما الذي آتى بكم إلى هنا وأين أخيكم الصغير ؟

وأنت أيها الكبير ألم أجعلك تتولى مسئولية الاعتناء بهم .. لما تركتهم يخرجون من المنزل قبل أن أعد ؟

❋ فبدأ في البكاء وقال ❋

+ لقد أخبرتهم أنكِ ستغضبين، لكنهم لم ينصتوا لي وخرجوا قادمين إليكِ فجئت معهم كي أطمئن عليهم .. وتركت أخينا الصغير نائماً في البيت

❋ فتنهدت وقلت ❋

– حسنًا لا تبكي .. آسفة

فأنـا لا أعـرف أنـك حاولـت منعهـم ظننتـك أتيـت هنـا لتلعـب معهـم

وأنتـم أيهـا الأشـقياء ألـن تتوقفـوا عـن جعـلي أنـا وأخيكـم نقلـق عليكـم

+ كنا نريد اللعب فقط يا أمي

– كنا نريد اللعب فقط يا أمي .. هذا ما أسمعه منكم كل مرة

حسنا عودوا الآن وسنلعب كثيرًا في المساء

+ حسنًا

* وقلت موجهةً الحديث لأخيهم الكبير *

– اعتني بهم جيدًا حتى أعود

+ لا تخافي يا أمي .. سأفعل

* ودعتهم بابتسامة وأخذت أراقبهم حتى عادوا إلى البيت *

وانطلقت أنا والرفاق إلى حلب

تلـك المدينـه المذبوحـة التـي كان يفصلنـا عنهـا عـلى عقارب الوقـت سـاعة وعـدة دقائـق ... ولكـن .. عـلى أرض الواقع ..

لقـد فصلنـا عنهـا الكثـير مـن الأجسـاد الملقـاة عـلى الطريـق والتـي دلـت عـلى اقترابنا

وسحابة غبار إن أخرجت يدك فيها لا تكاد تراها

وعـدد لا بـأس بـه مـن موجـات الأصـوات المبحوحـة التـي تكاثفـت وانتـشرت - مـن كثـرة النـواح والبـكاء- لتمـلأ الهـواء المحيـط بهـا

يا الله !!!!

ما كل هذا الذي أرى ؟!؟!

هنـاك الكثـير مـن المنـازل المهدّمـة .. مئـات المصابـين .. أشـلاء وجثـث في كل بقعـة ..

و بحور دماء .. إنها بحور بالفعل ليست مبالغة !!

لم أستطع المشي، جسدي اقشعر وتصلب من صدمة المنظر

ظللـت سـاكنة في موقعـي لعـدة دقائـق حتـى انتبهـت لشـخص يسـتغيث مـن بعيـد بصـوت منخفـض فذهبـت إليـه بـأسرع مـا في وسـعي ...

لقـد كان ملقـى عـلى الأرض في حـال يرثـى لهـا فرفعـت رأسـه المغطـى بالدمـاء والتـي مـن كثـرة سريانهـا عـلى وجهـه لم أسـتطع تمييـز ملامحـه أو عمـره حتـى وأسـندتها عـلى إحـدى الصخـور فقـال ..

+ أريد ماء ..

* فأجبت في ارتباك شديد ويداي ترتعشان من الخوف *

- ح.. سنًا .. سأح..ضر .. الماء

ذهبـت ركضًـا أبحـث عـن مـاء بالقـرب لكـن .. لا مـاء .. لا مـاء

أي مـاء الـذي أبحـث عنـه الآن وأنـا تاركـةً إيـاه عـلى هـذا الحـال ..

ركضت عائدةً إليه والعرق يتصبب مني

فوقعت أرضًا واصطدمت بحجارة المباني المحطمة

فبـدأت رأسي بالنـزف وعينـاي بالبـكاء والرعشـة لا تـترك جسـدي ..

قاومـت كل هـذه المشـاعر المتألمـة داخـلي ونهضـت لكـي أذهـب إليـه

سأخبره أن يصبر قليلًا حتى أجد الماء

وإلى هذا الحين سأداوي له جر.............

....

وقفت أمام جسده المُلقى على الصخور

فوجدتـه يلفـظ أنفاسـه الأخـيرة ويسـتكين بعدهـا بعينـين مفتوحتـين عـلى مصراعيهـا

جثوت بجانبه وأغمضت له عيناه

لم يسبق لي أن شاهدت روح تودع جسدها من قبل

كان بداخلي فزع واتعاظ لن أنساهما طالما حييت

فعندمـا تأملـت ذاك الجسـد الفـاني وهـو فاقـد كل قـدرة عـلى المقاومـة أو الدفـاع عـن نفسـه أو حتـى الـتألم ..

شعرت كم أن الدنيا .. دُنيا حقًا

وضعت حينها يدي على وجهي وزدت الآهات والدموع

لمـا لم تنتظـرني .. لقـد ذهبـت لخمـس دقائـق .. هـم كانـوا فقـط خمـس دقائـق

أستغفر الله العظيم ..

إنا لله وإنا إليه راجعون .. رحمك الله ..

رحمكم كلكم .. ورحمنا

مسحت دموعي ونظرت حولي في كل مكان

الجميع يبكي ومن لا يبكي يصرخ ومن لا يصرخ يتأوه

ومن لا يتأوه فهو يحتضر ...

انتابتنـي هسـتريا مـن الخـوف وكـدت أن يغشـى عـليّ فذهبـت ووقفـت بالقـرب مـن الأطبـاء والممرضـين لاسـتمد منهـم بعـض الطمأنينـة والقـوة

فلقد أكتشفت توًا أني أجبن وأضعف مما ظننت ..

وحاولت عدة محاولات يائسة لمساعدتهم حتى انتهى اليوم

عدت إلى بيت الأطفال في وقت متأخر

ودخلت غرفتي بدموع تبلل وجهي

لكنـي وبعـد لحظـات أخـذت أضحـك بشـدة عندمـا حاولـت تخيـل مـا سـيفعله العـرب بعـد تلـك الكارثـة

بالتأكيد إنهم سيثورون ثورة عظيمة .. سيستشيطون غضبًا

سـيطالبون بالقصـاص لتلـك الدمـــاء .. سـيحتجون ويُضرِبـون

لكن .. من خلف هواتفهم ..

سـيفكرون في كلـمات قويـة ليكتبـوا بهـا المنشـورات المؤثـرة .. وسـيبحثون عـن أكثـر الصـور حزنًـا ليضعونهـا صـورًا شـخصيه لصفحاتهـم .. وسـيكتبون الأغـاني والقصائـد وسـيصيغون الألحـان ...

وفقط !!

و .. فقط ...

لا أعلـم لمـا يفعلـون أمـورًا مُتعبـة ومرهقـة جـدًا كهـذه ألا يخافـون عـلى أبدانهـم وعقولهـم مـن كثـرة التفكـير !!

يالا السخف ...

اللهم مغفرة لنا على كل هذا وخلاص يا عظيم

أدرك أننـا لا نسـتحق .. لا نسـتحق كرمـك وعطفـك ورحمتـك .. لكـن لأجـل هـؤلاء يـا الله .. هـؤلاء الذيـن لا ذنـب لهـم في هـذا الزمـن .. لا ذنـب لهـم أننـا لا فائـدة تُرجـى منـا

طـردت مـن عقـلي تلـك الأفـكار التـي لا تزيـدني سـوى بؤسًـا

وذهبت لأطمئن على الأطفال فوجدتهم نائمين

سـجدت لله شـكرًا أنكـم بخـير حتـى الآن .. أنـه مـازال مكتـوب لي أن أراكـم مـرة بعـد

أنتم الشيء الوحيد الجميل الذي بقى في عالمي

السبب الذي يهون على ويعيني على التحمل

***

مع مرور الأيام بدأت أشعر أني أحقق وعدي الأول لك

« سأقاوم الظروف وأضحي من أجل أن أترك أثر ..

من أجل أن أكون عابرًا يستحق الذكر «

هذا ما أفعله الآن

فأنـا أتـرك أثـري في هـذه البـذور .. ففـي كل يـوم يمـر أنغـرس فيهـم أكثـر

ويتعلقون بي .. ويتعلمون مني

أحدثهم كثيراً عن الله .. عن الإسلام .. عن السلام

عن الحياة .. عن الرحمة .. عن الجنة ..

وأشعر بسعادة جمة كلما رأيتهم يُطبقون ما أعلمهم إياه

سيكون لك جزءاً كبيراً من هذا الثواب أنت وأبي فأنا أخذت كل ما تعلمت منكما

أشعر أني الآن أقوى .. أقوى من أي وقت سابق

فالإيمان والأمومة .. والتضحية بالنفس والدنيا وما عليها

تلك التركيبة الروحانية كانت كفيله أن تجعل مني

إنسانةً ..

ما أعمق تلك الكلمة أظن أني اقتربت وأخيرًا من استحقاقها

ولكن ..

لن يتركك القدر حتى ينحت فيك آخر تفاصيله لتصبح ما أراد البارئ أن تكون عليه وتلك المرة الأقسى من بين الجميع ..

ها قد مر ما يقرب من عام ولم تتحسن الأوضاع في شيء

فـكل يـوم يـزداد مـرارة عـن سـابقه .. الـشيء الجيـد الوحيد أن والـد الأطفـال عـاد لهـم .. كنـت أعلـم أن هـذا سـيحدث فـالله لـن يخيـب دعـاء طفـل لأبيـه، ولكـن المـرض أخـذ منـه مـا أخـذ ولم يعـد كـما تركهـم .. بـل عـاد مبتـور الرجلـين

كل ما استطعت أن أقدمه له بعد كل تلك المعاناة

أن أعتني بأطفاله كما كنت أفعل وأعتني به هو أيضًا

وكانت الأيام تسير .. والأوضاع تتدهور .. ولكن ببطيء

الغلاء .. والمرض .. والفقر

يزدادوا كل يوم أكثر ولا يملك الأشخاص حيلة

حتى جاء ذاك اليوم الملعون ..

كنت حينها أعمل في المشفى كعادتي كل صباح

وقـد أوشـكت عـلى الانتهـاء إذا بسـيل مـن الطلقـات يهبـط فجـأة عـلى القريـة

فرأيت الكل يركض هاربًا ليحاولوا الاختباء

ويُقتل من يُقتل .. وينجى من ينجى

وأنا تحت أثر الصدمة واقفة في مكاني

حتـى انتبهـت أن منـزل الأطفـال بالجـوار وعندهـا انتفضـت مـن الخـوف

مـاذا سـأفعل الآن كيـف سـأخرج لهـم .. مـاذا سـيحدث لكـم يـا صغـاري

ذعر وفزع يملأن قلبي كما لم يفعلا من قبل

الدعاء .. أجل الدعاء هو ما سينقذهم

اختبأت في أحد الأركان وأخذت أدعُ بشدة وببكاء ..

الله أكبر .. أكبر منهم ومن خوفي ومن الجميع

سـيكون كل شيء عـلى مـا يـرام .. صدقينـي .. كل شيء سـيكون بأفضـل حـال

كل شيء ..

وأتمتم بالدعاء وبكلمات الطمأنينة

لكن .. لا أهدأ .. لا أستطيع أن أهدأ

قلبي يرتجف وكذلك كل جسدي

هناك أمر ما سيحدث

أرجـوك يـا الله خيـب ظنـي وخيـب دقـاتي الخائفـة وخيـب دموعـي

ووجع روحي ..

يجـب أن أخـرج بـأي ثمـن، حاولـت محاولـة بسـيطة، لكنهـا فشـلت فشـلاً ذريعـاً

واُصبت في كتفي

ألم تكن الأوضاع سيئة كفاية لتصبح أسوأ ؟

وجع شديييييييد

يا الله ..

يا ليته كابوسًا ليس إلا

لكن ما من كابوس يُؤلم إلى هذا الحد

هل انتهيت .. هل سأموت !!

أخر ما أتذكره أني وضعت يدي على قلبي ورددت

« لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا «

وشعرت أني أغرق .. وأغرق

والقاع لا يأتي ..

***

أستيقظ لأرى حولي جدران الغرفة وأجدني مستلقية على أحد أسرَّة المشفى مُضمضة الجرح .. فنهضت في فزع ...

متى فقدت الوعي ؟؟ .. أطفالي ما حالهم ؟؟

لما لا أسمع صوت الطلقات .. هل انتهت تلك الكارثة حقًا ؟؟

قمت من مكاني، لايزال موضع الرصاصة يُؤلمني جدًا

ولكن يجب أن أذهب إليهم .. أريد أن أطمئن عليهم

نظـرت إلى جـواري فوجـدت المسـؤولة عـن الممرضـات جالسـة عـلى أحـد الكـراسي

هـذه السيدة بمثابـة أمـي الثانيـة .. هي مـن تهـتم بتعليمي ورعايتي

وأعود إليها متى احتجت إلى أي شيء

أخبرتهـا أني سـأذهب للصغـار، لكنهـا منعتنـي بقـوة مـن الخـروج ولا أعلـم لمـا !!

- أرجوكِ إنهم أطفالي

+ هـم ليسـوا أطفالـكِ ... هـؤلاء الأطفـال أنـتِ تعتنـين بهـم فقـط

- مـا الداعـي لقـول مثـل هـذا الحديـث الآن .. أرجـوكِ دعينـي أذهـب لأطمئـن عليهـم ليـس بمقـدوري أن أتكلـم أكثـر فأنـا أتـألم مـن كل خليـه في جسـمي .. اتركينـي فحسـب

+ لكنكِ لم تستريحي كما يجب

* بنظرة شفقة *

- سأرتاح عند رؤيتهم

+ لا .. لن تخرجي من هنا بهذا الحال

– أرجوووكِ دعيني أذهب .. أنا بخير.. صدقيني

انظري .. ها أنا قادرة على التحرك والجرح لا يؤلمني البتا

أرجوكِ فهذا ليس الوقت المناسب للنقاش بخصوص بنوتهم لي ..

أنا أريد أن أنظر إليهم وأطمئن عليهم فحسب

سأراهم سريعًا وسأعود لأستمع لكل نصائحك

أرجوكِ ..

+ حسنًا أهدأي .. كما ترغبين

أنا أعلم أنكِ ستتألمين أكثر بكثير بعد رؤيتهم .. لكن كما تحبين

* لم أنتبه لما قالته وخرجت بسرعة قبل أن تُكمل حديثها *

وفي طريقي نحو الباب الخلفي .. وقبل أن أخرج من المشفى

رأيت الأخوين الكبير والصغير يجلسان بأحد الأركان، الصغير يبكي وأخيه يُسكته، ثم يضمه بقوة ويبكي هو الآخر

صُدمت .. فأنا لم أرهم يبكون بوجع من قبل ..

لم أرهم سوى يضحكون ويمرحون .. ويلعبون ..

ماذا أخرجكم من الجنة يا صغاري ؟!

كيـف أصبحتـم تـرون العـالم كـما نـراه فتسـتطيعون البـكاء وينطفـئ نـور وجوهكـم

سرت نحوهم بخوف في خطوات بطيئة

لابـد أن مـا حـدث كان مُفجـع ليجعلكـم تنهـارون بهـذا الشـكل

اقتربت منهم .. نزلت دموعي وتسارعت دقاتي

أخشـى مـن سـماع مـا سـتقولون فـما عـاد في قلبـي مُتسـع لوجـع إضـافي

ووصلت إليهم وأنا أتنفس بصعوبة

نزلـت ببطـيء عـلى ركبتـاي حتـى تمكنـوا مـن سـماع صـوت ضربـات قلبـي الهائجـة

عنـد هـذه اللحظـة نظـروا إلى وانتبهـوا لوجـودي .. ارتمـوا همـا الاثنـان بحضنـي يبكيـان بـكاء طفـل فُطـم مـن الرضاعـة لتـوه وتحطمـت كل ألعابـه دفعـة واحـدة

أشعر وكأن كل عصب بي يعتصر من فرط الألم

وأن كل نبضـة تخـرج منهـم تخترقـن فتصـل لروحـي وتـترك فيهـا نُدبـة ..

بدأ الأخ الكبير يتحدث بقلب منفطر

+ لقـد وقعـوا هـم الثلاثـة عـلى الأرض وخرجـت منهـم دمـاء كثـيرة

حاولـت إيقاظهـم فلـم يجيبـوا .. ركضـت وأحـضرت الحلـوى فلـم يهجمـوا عـليّ ويأخذوهـا كـما يفعلـون دومـا !!

ظننـت أنهـم غاضبـون منـي لأني عنفتهـم بشـدة آخـر مـرة أخـذوا حلـواي فيهـا

لـذا نثرتهـا لهم عـلى الأرض .. لكنهـم لم يقومـوا ليجمعوها !

ظلوا كما هم نائمين .. وظلت الدماء تخرج وتخرج

أحضرت قطع القماش والملابس

حاولـت أن أربطهـم عـلى أماكـن الجـروح لتتوقـف الدمـاء عـن السـير في البيـت

أكره الدماء أمي ..

لكني لم أستطع .. فأنا لا أعرف كيف أربط؟

ظللـت أحـاول وأحـاول وأحـاول ولم يتوقـف الـدم .. ولم يستيقظوا ..

ثم آتى أصحاب الملابس البيضاء وأخذوهم

أردت أن أذهب معهم لكنهم منعوني

أخبرتهـم مـرارا و تكـراراً أن أمـي جعلتنـي مسـئول عـن أخـوتي ولا يمكنكـم أخذهـم دون أن أخبرهـا، لكنهـم لم يلتفتـوا لمـا أقـول حتـى

فأخذت أخي وركضنا خلفهم إلى هنا

ولم يعد أخوتي حتى الآن ...

ألن يعود أخوتي .. ألن أرى أخوتي مجددًا ؟

هل ماتوا .. هل هذا هو الموت يا أمي ؟

أنا لا أحتمل .. صدقًا لم أعد أحتمل

كل مـا اسـتطعت فعلـه أني أومـأت بـرأسي أنـه هـو نعـم .. هـذا هـو المـوت

سامحني فأنا لست بالقوة الكافية لأنطقها يا صغيري

وضممته إلى أكثر وأكثر حتى كادت أن تتكسر أضلعه

الآن أدركت لما كانت تمنعني الممرضة من الخروج

فـإن كانـوا أخـذوا قلبـي مـن صـدري وألقـوه بـين أنيـاب الذئـاب لِتُقطعـهُ لـكان الألم أهـون عـلى مـن هـذا .. أهـون بكثـير

لم أعد أستطيع الصمود .. الموت حقيقة دائمًا مُفجعة

أسندت ظهري إلى الحائط وأخذت الاثنين بجانبي

حاوطهما بيديَّ وضممتهما إليّ

أتما بكاءهما حتى توقفا من التعب وناما من شدة الإرهاق

وأنا لا أعرف كيف يمكنني إسكات دموعي

كيف يحتمل صغيران في هذا العمر هذه الحادثة

فأنا لا أحتملها

أنا لا أقوى على الحراك من مكاني

لا أملك أن أوقف سيل الأنين بداخلي

فكيف بهما

كيف بكما يا ملاكان !! .. كيف بكما

أتى الممرضون والأطباء والطبيبات واحدًة تلو الأخرى

أخذت إحداهن الصغيران للنوم وحاول الآخرون التحدث معي وجعلي أتماسك

ماذا تفعلون !!

وماذا ستفعل كلماتكم .. هل ستعيدهم إليّ ؟؟

أم أنها سوف تنسيني ما حدث كأنه لم يكن ؟؟

وفـروا كل مـا سـتقولون فلـن يخفـف مـن وجعـي شيء .. إطلاقـًا ..

أُقدر صدق مشاعركم وأقدر رغبتكم في مواساتي

لكـن هنـاك أمـور لا تجـدي فيهـا الكلـمات نفعًـا مهـما كانت قوتها ..

ولبرهة شعرت أني أخطأت، فقد تداوي الكلمات جروح بليغة

قـد تعطيـك الكلـمات نهـرًا مـن الصـبر وتعينـك لِتكمـل، قد تقـوي ظهـرك الـذي انحنـى مـن صدمـات الحيـاة، وقـد تخـبرك أنـك تحتـاج أحيانًـا لمثـل هـذا الألم لتعـرف أن الله يُحبـك ..

قد تفعل ..

قد تفعل كما فعلت الآن

«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ»

قالها لي أحد الأطباء

تلك الآية ..

كانت كل ما سمعت من حديثهم الكثير

سمعتها ونظرت إليه ..

فمنــذ أن أخــذوا الصغيريــن وأنــا شــاردة ولم أوجــه نظـري لأحــد منهــم قبلــهُ

وقد لاحظ ذلك هو فابتسم لي .. فابتسمت له

ابتسمت ابتسامة نابعة من شخص مُحطم

شخص تشبّع بالأسى ..

لا أعلم كيف ابتسمت له هذه الابتسامة تلك اللحظة

كل ما أردت أن أقول هو .. شكرًا

شــكرًا عــلى مــا فعلــت وعــلى بقايــا القــوة التــي أعطيتنــي ولأننــي نســيت أن بإمــكاني التحــدث أو التعبــير حتــى .. خــرج منــي الشــكر عــلى هيئــة ابتســامة

و ذهبت بعدها حيث حجرة منعزلة لأستريح

فــما حــدث والبــكاء الــذي بكيتــه والحــزن الــذي مــلأني جعــلاني في غايــة الضعــف

وزاد حالتي سوءًا إصابة كتفي والدم الذي فقدت

اجتــماع كل هــذا عــلى جعــل قــواى تخــور بأكملهــا فنمــت باستســلام متمنيــة للمــرة الثانيــة أن يكــون كل هــذا كابوسًــا فحســب..

***

كانت أمنية وتبخرت

واستيقظت ليلًا ..

إنها حقيقة

لقد ماتوا ..

كيـف يمكننـي أن أصـدق أني فقـدت ثلاثـة مـن أطفـالي دفعـة واحـدة

أشعر وكأني فقدت جزءًا من تكويني

أشـعر وكأننـي حقًـا ناقصـة، شـيئاً مـا أُنتـزع منـي وتـرك الخـواء بداخـلي

لم أعد أستطيع البكاء

جفـت دموعـي .. أو أن تلـك المـرة لا يمكـن للدمـوع أن تداويهـا فلـم تسـقط ..

شعورًا لم يخالجني من قبل

إنها تلك الرغبة المُلحة

في الموت ..

لم أتخيل أني قد أتمنى الموت يومًا من شدة الألم

لكني صرت أرجوه من الله

لا أحتمل .. لا أحتمل .. لا أحتمل ..

لم أعد أحتمل ..

ااه

❊ قلتهـا بصرخـة مُعذبـه فيهـا كل مـا عانيتـه العامـين السـابقين❊

كانـا مجـرد عامـين مـن عمـري لكنهـما كانـا بقسـوة ألـف سـنة

أخذت بعدها أتنهد بقوة .. وقمت لأصلي ..

الصـلاة هـي الفعـل الوحيـد الـذي يمكنـه أن يرممـك فتعـود صالحًـا للحياة

لا أعـرف أي فعـل آخـر يمكنـه أن يعالـج شروخًـا تركهـا الحـب تُنهيـك ورحـل كـما تفعـل هـي ..

كرهتك أيها الحب وكرهت نفسي

لا نتـألم إلا عندمـا نحـب .. يـا ليتنـي بإمـكاني أن أكـره الجميـع لكنـت فعلـت ذلـك حتـى لا أشـتاق لأحـد ولا أتذوق جرعـة الفـراق هـذه مـرات و مـرات

سجدت ..

وعندهـا توقفـت عـن التماسـك وأظهـرت كل النـدوب التـي انطبعـت عـلى روحـي

وعادت الدموع لترسم طريقها على ملامحي

يـا الله وحـدك تعلـم أي نزيـف أعانيـه وإلي أي مرحلـة مـن مراحـل الصـبر وصلـت

لكنـي انفلـت .. وكل القـوى التـي ظننـت أني اكتسـبتها كانـت خيـط رفيـع وانقطـع

ورسـبت مـع أول اختبـار وأنـا الآن في أضعـف حـالاتي وأكثرهـا حزنًـا

كن معي كما كنت دومًا .. وزدني صبرًا ..

وسامحني ...

بعـد أن أنهيـت الصـلاة جلسـت أتأمـل السـماء مُحاولـةً أن أنسـى قـدرًا مـن الوجـع

فـذاك الجـرح الملتهـب فينـي مـازال رطبًـا لم تمـر عليـه الأيـام ليهـدأ بعـد

ورأيت الطيور ..

طيور الصباح ...

تلك التي كلما رأيتُها ذابت عيناي معها

لا أعرف لما كانت رؤيتها مصدر راحة لي

ربما لأن لديها ما لا أملك منه الفُتات ...

لديها الحرية ...

هـل لي بجـزء مـن حريتـك أو حتـى السـلام الـذي تعيشـينه في الهـواء

بعيداً عن دنيا البشر وما عليها ؟!

خذيني معكِ ..

فما عدت بمقدوري الحياة هنا على هذه الأرض

حيث الظلم والقهر والفراق ..

و بينـما أنـا أصـارع القنـوط داخـلي جـاءوا ليخـبروني أنهـم ذاهبـون لدفـن جُثـث مـن ماتـوا والصـلاة عليهـم .. سـألوني إن كنـت سـأذهب معهـم لأودعكـم الـوداع الأخـير

هـل حـان الفـراق الأبـدي فعليًـا ولـن أرى ضحكاتكـم التـي كانـت تزيـد الحيـاة حيـاة

سرقتـم منـي قـوتي ومـن أخويكـما الأمـان والسـعادة بذهابكـم

هلا دعوتم لنا الله .. أنتم الأقرب منه الآن

دومًا كنتم جميعكم الأقرب منه

مـا أصعـب أن تـرى مـن كانـت تتلخـص فيهـم الحيـاة بأجمـل معانيهـا

جثثًا هامدة

كم تتبدل فصول العمر سريعًا ،كنتم في الزمن القريب سببي القوي لأحيا

وأنتم الآن سبب رغبتي في الموت

أراكم تُوضعون تحت الأرض ويخبؤكم التراب هكذا هو الحال مع الأشياء الأكثر بريقًا يضعونها بعيدًا عن تشوهات العمر التي قد تمر بها

أو أي لص يسرق لمعتها

أعدكم أني سأتماسك لأكمل الطريق لأحمي أخويكما

لأعتني بهما

باتت تُهلكني الوعود الكاذبة، فقدت قدرتي على تصديق وعودي

هل يوجد ما هو أكثر سُخفًا من هذا !!

هل حقًا سيأتي اليوم الذي يُشفي فيه الوجع الذي أشعره فمن شدته علي أشعر أني سأحياهُ إلى الأبد

كم تألم أبيكم عليكم، أنتم لا تعلمون كيف ساءت حالته

أو ربما تعلمون ! ..

توقف عن تناول الطعام وعن التحدث .. حاولت أن أجعله يتحسن قليلًا، أخبرته أنه مازال هناك من يجب أن يعتني بهما

من يجب أن يكون بخير لأجلهما

لم أنم الثلاث ليالي التي مرت من بعد الحادث كنت أسهرها أصلي وأبكي وادعو وأتأمل طيور الصباح وأعمل في المشفى في النهار

وأكون مع الطفلين من بعد فترة الظهيرة .. أحاول أن أطمئنهما

أكذب عليهما كثيرًا لأمكنهما من تجاوز ما حدث بخير

أظهر إليهما شخصًا آخر

أكثر تفاؤلًا .. أكثر قوة .. أكثر سعادة ..

أكثر خداعًا وكذبًا

وهكذا مضت الشهور الأربع من بعد الصاعقة .. أصبح الطفلان شبه قادران على التعايش من جديد، وأبيهما يستجمع قوته من أجلهما

وأصبحت أنا أكثر صمودًا .. أكثر تمسَّكًا بالله ..

فالابتلاء الذي لا ينزع إيمانك يجعلك تعلو درجات

هكذا احتسبتكم عند الله ..

واحتسبت صبري ..

***

علمت مع مرور الأسابيع أننا كنا مجرد ضحايا بين شقي رُحى

فلم نكن نحن المستهدفين .. بل إنه ولسوء حظنا أننا على نفس الأرض التي قام عليها الاشتباك بين الطرفين الذين لم يهمني كثيرا من هم ..

بل ما آلمني حقًا أنهم من الشعب ذاته

أي أن أبناء البلد هم من قتلوا أشقائهم

ربما خطأً .. وربما قصدًا ...

فالأمر لا يشغلهم كثيرًا ... فالأهم لديهم هو النصر

لا أعرف ينتصرون من أجل من وهم يبيدون أهليهم !!

الآن أدركت كم كان الطبيب محقًا عندما قال لي أن أنسى أمر الإصلاح

وأن أقوم بعملي فقط .. كيف بإمكاني أن أصلح شيئًا يُنهش من القلب ؟!!

إنه سرطان ..

خليه من داخل الجسد هي من تدمر الجسد كله

لأنها رأت أنها وحدها الصواب والجميع على خطأ

إذن .. فليمت الجميع

حتى وإن كان من بين الجميع هؤلاء الأطفال لم يعرفوا بعد ماذا تعني كلمتي الصواب والخطأ ..

أو مجرد نساء لا حول لهن ولا قوة

أو شيوخ أراهم العمر الضعف بعد القوة وما أصعب أن يُسلب منك شيئًا كنت تمتلكه فتعيش حسرة عليه وتظل مُتعتك الكبرى أن تتكلم عنه وتتذكره

أيًّا من هؤلاء بربكم سيكونون الخطأ الذي تريدون إصلاحه

أيًّا منهم قد يشكل خطرًا على الجسد .. هم فقط مسالمين كل غايتهم العيش في أمان إلى أن يأخذهم مَلك الموت أو يجعل الله لهم سبيلًا

أكان الشر الخارجي والضرر الناتج عنه غير كافي ليهد أحلامهم

فأكملتم أنتم المسيرة

الأمر غاية في الاشمئزاز ...

لقد عُرض عليّ أن أعود للوطن في الفترة الأخيرة حتى أطمئن على عائلتي

وأكمل حياتي حيث توقفت لكنني تمسَّكت بالجلوس خشية على الولدين

إن تركتهـما همـا وأبيهـما الآن فـماذا سـيحدث لهـما ؟؟ مـن سـيقوم بشـئونهما ؟؟

أأنزل مصر ؟؟

ثم !!

أعود مرة أخرى هنا ..

لن يسمح لي أهلي بهذا

إن عُدت للوطن قد لا أرى الطفلين مجددًا ..

فلقد أصبحت أخشى العودة أكثر من خشيتي من غربتي

لا أعلـم مـاذا سـيحدث عندمـا أعود ومـن كل قلبـي أتمنى ..

لا أدري أي القرارين أتخذ ..

تلك الحيرة التي تصدر مني

لما أصبحت كل حياتي تحوي قرارات مصيرية لا رجعة فيها

لما لا تعود تلك القرارات السهلة التي لا ندم عليها

هل أرتدي الفستان الأسود أم الأحمر

هل أشرب عصير الجوافة أم الأناناس

هل أتناول البيتزا أم بعض قطع الدجاج أم بيتزا بقطع الدجاج

بحـق أصبحت أفتقـد الحيرة في مثل تلـك القـرارات الهينة ...

تلـك القـرارات التـي تحتمـل خياريـن أصعبهـما سـهل وقـد اختــار الاثنــين معًا

كم كنت أحيا حياة بسيطة وعادية

أفتقدها بحق السماء ..

أكملت الحياة..

لكن التفكير في العودة لا يغيب عني لحظة

الشوق جحيم قاتل

كأنني تذكرت توًا أن لدي عائلة وموطن

لما لم أكن أفكر هكذا في العام الماضي ..

ربما لأني كنت فقدت الأمل في أن أعود

والآن فُتـح بـاب أمـل جديـد ولكـن يصعـب عـلى المـرور فالعواقـب لـن تكـون سـارَّة

لـذا يجـب على أن أتجاوز الشـوق - كما اعتـدت - وأمضي ..

***

مرت ثلاث أشهر أخرى وأنا أحاول ألا أكثر التفكير

لكني كنت كثيرة التفكير رغمًا عني

و ذات يوم فجرًا بعد أن أنهيت الصلاة ..

وأثناء متابعتي للسلام والهدوء الذي تحياه القرية ليلًا

رأيت شخصًا مصابًا يكاد يكون في عِداد الموتى يزحف باستماته مبتعدًا

لكن عن ماذا ؟ .. لا أدري ..

تركت منزل الأطفال وذهبت إلى المشفى وطلبت من الممرضين مساعدتي في أخذه للداخل .. فلم يلاحظه في وسط العتمة غيري

كان هو الآخر شديد الاستغراب من ما فعلناه معه

وبدأ مراقبتنا جميعًا في حذر كأنه يخشى أن نقتله في أي لحظة غدر

كثير التساؤل عن الأدوية التي نضعها له في المحاليل

والتي نضعها على جروحه العميقة

أخرجنا طلقتان من قدمه فلابد أن من أصابه كان يريد أن يشل حركته، لا أن يقتله

لكن ما جعل الأمر خطيرًا وجعل حالته بهذا السوء هو تلك الكدمات التي كانت تملئ جسده لا الرصاص

أخذت أعتني به ما يقرب من الأسبوعين

كنت أذهب له كل يوم أتابع حالته وتقدمها حتى جاء يوم مغادرته المشفى

وبعد أن جمع أشياءه واستعد للرحيل قال لي

+ اهربي ..

* ظننتني أخطأت السمع *

– عفوًا ماذا قلت ؟

+ اهربي من هنا

+ ماذا ؟

+ ألا تسمعين .. قلت لكِ اهربي

* لأقول بكل هدوء *

– سمعتك من المرة الأولى .. لكني لم أفهم لما هذا الطلب الغريب !!

+ لأنكِ ستموتين إن بقيتي ..

* لأرد وأنا تعلو وجهي ابتسامة ساخرة *

– أهذا هو السبب ! .. ولما الهروب فحتما سأموت في يوم ما

+ أتتذكرين ما حدث لهذه القرية من ما يقرب من ثماني أشهر

– بالتأكيد و ياليتني لا أفعل ...

* قلتها بصوت خافت وأظنه لم يسمعها *

+ سيحدث مجددًا لكن تلك المرة لن ينجو منكم أحد

* والحزن بادٍ على صوته والقلق على ملامحه *

-أنت تمزح .. تريد إخافتي فقط أليس كذلك ؟ !

+ هـل يبـدو عـلى ملامحـي المـزاح !! .. قلـت لـكِ اهـربي وكفـاكِ اسـتجوابًا لي

* قال جملته الأخيرة في غضب *

- كيـف علمـت هـذا وكيـف تطلـب منـي أن أهـرب وأترك الجميع للهـلاك ؟!

+ لأنكِ لن تتمكني من إنقاذهم ..

- سألتك

كيف ..

علمت ..

هذا ؟

* مُكـررةً عليـه بحـزم وجديـة السـؤال الـذي هـرب مـن إجابتـه ليجيـب بتوتـر وغضـب*

- لن تغير إجابتي من الوضع شيء .. وأنا لن أجيب

لتفعـلي مـا تشـائين .. أنـتِ لا تريديـن الهـرب أليـس كذلـك.. لا تهـربي أنـتِ حـرة فيـما تفعلـين امكثـي هنـا

واستمتعي بالرصاص وهو يستقر داخل جسدك وشاهدي الدماء بلونها الأحمر الرائع وكوني سعيدة وأنتِ تودعين سنواتك الربيعية

* نظرت إليه في خوف شديد عندما تأكد لي أنه جاد فيما يقول

لا .. صغيراي

لا تقل لي أني قد أفقد ما تبقى مني قبل أن أرتاح من وجعي السابق قليلًا

لا تقل لي هذا وأنا على وشك تعلم الوقوف بعد الضربة الأخيرة

لاحظ الذعر الذي بدى على وجهي والذي ظن أنه خوفًا مني على نفسي فتمالك نفسه وغضبه وقال محاولًا طمأنتي *

+ هل أدركتي الآن أني خائف عليكِ .. أنتِ لا تستحقين أن تموتي هكذا

- لا أحد يستحق أن يموت هكذا

+ ....

اهربي أنتِ فحسب

- مستحيل

+ ماذا تريدين إذن !!

- أريد أن لا تُنزف نقطة دم أخرى

* ليضحك هو بصوت عالي *

+ أنت تضحك .. بالطبع ستضحك ...

فأنـت لا تـدرك كـم تعـاني الأم عندمـا يُقتـل ابنهـا مـن مجـرد قطعـة معدنيـة لا تتجـاوز حجـم أصبعهـا الصغـير ويفقـد دمـه قطـرة قطـرة حتـى ينتهـي ثـم تذهـب لترميـه في الـتراب، أنـت لا تـدري كـم الألم الـذي حـدث في تلـك البقعـة مـن أشـهر قليلـة

ألم كافي أن يجعلـك تحـزن لعـشر سـنوات قادمـة وأنـت تضحـك لأني أريـد أن أحمـي البقيـة ... حسـنًا فلتضحـك أنـت بينـما أذهـب أنـا لأجـد حـلًا

* قلتهـا بصـوتٍ عـالٍ ودمعـت عينـاي وذهبـت مسرعـة فأمسـك يـدي وأوقفنـي *

- كيف تجرأ .. اتركني

+ ها أنا تركتك

لكـن اعلمـي أن أي رد فعـل سـتأخذينه قـد يجعـل أيامـك القادمـة أقـل

- لستُ خائفة .. قد أموت أنا لكن لأنقذ الآخرين

+ لـن يصدقوكـي فهـم يظنـون أن هـذه القريـة لـن تصـاب بـأي خطـر بعـد تلـك المصالحـات والانتصـارات ونظريـات السـلام العقيمـة

وقرارات حقوق الإنسان الكاذبة

❋ فصمت أنا ❋

+ خذي أشياءك وغادري إلى وطنك

– لا يمكنني ... سأحاول حتى وإن لم يصدقني أحد

+ الثلاثـاء القـادم السـاعة الثانيـة بعـد منتصف الليل ستُشـن معركـة أخـرى بـين الأحـرار والنظـام في هـذه البقعـة ولا أظـن هـذه المـرة أنـه سـيبقى منكـم فـرداً واحـداً حـي

الآن افعلي ما تريدين لقد علمتي كل شيء ..

❋ وأخذ أشياءه وذهب ❋

فجلست أنا على السرير في ذهول

ماذا قال ؟ .. متى ؟؟ .. من ؟؟؟

حقًا .. كلا .. هذا غير حقيقي

لما عاد هذا الشعور إليَّ مجددًا

يا إلهي .. أنا أعلم هذا الخوف جيدًا

الخوف من رؤية روح تودع جسدها

هذا المشهد كافيًا ليصعقك كالكهرباء ... أخافه بشدة

إنــه ذاك المشــهد الــذي قــد تشــاهده مليــون مــرة، لكــن كل مــرة مــن بــين المليــون

وكأنها الأولى ..

أخــاف شــكل الدمــاء وهــي تســير عــلى الأرض معلنــة احتلالهــا المنطقــة بأكملهــا

لا أريد أن أرى هذا ثانيةً

هــذا الخــوف بداخــلي يقــول لي أن كل مــا قالــه صحيــح .. هــو لا يكــذب

استفقت من أثر كلماته وخرجت بسرعة لألحق به

- أرجوك انتظر

* ناديتــه مــن بعيــد فعــاد إليّ بخطــوات بطيئــة بينــما ركضــت أنــا إليــه *

+ ماذا هناك ؟؟

- ساعدني .. رجاءً

+ مــاذا .. أنــتِ غبيــة أم مــاذا، كلا أشــكرك، فأنــا لا أريــد أن أموت شــابًا

سأسافر خارج البلاد وأنجو بنفسي

- وتترك الجميع يموت وأنت بيدك أن تنقذهم

+ أنا !! من قال هذا ؟؟ ... يخيل إليكِ

- أنت تعمل مع أحد منهم .. وإلا كيف عرفت هذه المعلومات

بالتأكيد ستتمكن من فعل شيء لإيقاف هذه الكارثة

ألم ينقذوك أهل هذه القرية من الموت ؟ ألست حيًا تستطيع المشي على الأرض بفضلهم ؟ أتنكر لهم هذا المعروف وتتركهم ضحية لهؤلاء ؟

+ أرجوكِ اتركيني وشأني حديثكِ هذا لن يؤثر عليّ

- لن تتركني أحارب وحدي ما أجهله

+ بلى سأفعل .. أنتِ من اخترتِ الحرب فتذوقي لعنتها

* فتنهدت وقلت باستسلام *

- أرجوووك .. أنا مستعدة أن أفعل أي شيء كي تساعدني

* صمت طويل *

+ أي شيء ؟؟

- أي شيء

+ ....

....

......

كوني لي ..

- ماذا ؟!

* بصدمـة من تسـمع ولكنهـا لا تفهـم أو لا تريـد أن تفهم *

+ كما سمعتي .. كوني .. لي

- كيف تكون بتلك الحقارة ؟؟

+ عن أي حقارة تتحدثين !! .. أنا أريد أن أتزوجك

- تتزوجني .. أنا !!!

+ بربـك لمـا كنـت خائفـا عليـكِ وأخبرتـكِ مـن بـين الجميع أن تهـربي .. هـل يوجـد سـبب آخـر غـير أني أحببتـك .. كيـف لم تلاحظـي ؟؟

لا أعلـم لمـا رغبتـك لا أعلـم لمـا أقـع دومًـا في التعلـق بالأشـياء صعبـة المنـال، لكـن هـذا مـا حـدث

هل تظنين حقًا أني سأذهب وأترككِ تموتين هنا

كنـت سـأذهب لأبحـث عـن مـكان أعيـش فيـه بالقـرب مـن المشـفى لأسـتطيع أن أنقـذكِ، لـن أسـافر لكـن أيضًـا لـن أنقـذ أحـدًا غـيركِ

إلا إذا .. وافقـتِ أن نتـزوج عندهـا سـأضحي بعمـري لأنقذ الجميـع، ولـن أكـون نادمًا

سأعتبر هذا مهركِ

ربـما تريـن هـذا السـبيل قـذر لكنـي أدرك أنـه السـبيل الوحيـد إليـكِ فأحيانًـا الغايـة كلـما كانـت هديـة لا تأتيـك في العمـر مرتـين كلـما بررتهـا أي وسـيلة ممكنـة

* لن أسمح لك بالتفكير يا عقلي *

- موافقة

+ فعلًا !!

- أجل .

+ بتلك السهولة ؟؟

- مـاذا تريـدُ منـي أن أفعـل ؟؟ .. قلـت لـك سـأقبل بالـزواج ولكـن عـدني أن تنقذهـم

+ ....

- ماذا ؟؟ ... لما تنظر إليّ هكذا

+ أشـعر أن في الأمـر خدعـة .. لمـا وافقـتِ مبـاشرة دون أي مقاومـة !

* لأقول بنفاذ صبر *

– كفى بالله عليك .. هل تريد مني أن أرفض ؟؟

+ كلا .. بالطبع لا

– إذن انتهي الأمر وأنا وافقت

لا تخـف منـي فأنـا لم أعتـد كـسر وعـودي والآن عـدني أنـت أنـه لـن يمـوت أحـد

+ ....

أعدك .. يا زوجتي ...

* يا لها من كلمة جارحة لك يا قلبي *

***

حيث موطن الذكريات ..

حيث تسكن ملامح وجهك

حيث تنتشر ابتسامتك كالدم في أوردتي

حيث أنت بداخلي

شعرت بغصة

تملّكت كل ذرة من جسدي كما فعلت أنت

إنه أثر انسحاب المخدر

ذاك المخدر الذي كنت لطالما أجعله مُسكنا لقلبي

مخدر من كلمات ..إن كل شيء سيكون كما تمنيت

وإنك لي .. وأني لك

وأني مهما ابتعدت فلن أخسرك

كنت متيقنة أن الله حفظك لي وأنك لن تكون لأنثى غيري

وأن لنا لقاء وسيجمعنا قدر كما كنت أدعُ في كل سجود

وانتهى المخدر ليعود الألم المَقيت ..

ألم نزعك من نبضاتي ومن أيام عمري القادمة كلها، ألم نزعك من وسط أحلامي كحلم مات وحان وقت دفنه

ألم ..

الشوق إليك

لم أشتاق إليك كما أشعر الآن ففي تلك اللحظة فقط شعرت بأني فارقتك

ولن تعود لي .. لتسيل أنت من بين ضلوعي ومن روحي وتخرج مع قطرات الدموع

أنت لا تنتهي ...

مهما بكيتُك فلن تنتهي

فلقد نلت مني ما نلت وما عاد بمقدوري التخلص منك

خـرج الأمـر عـن سـيطرتي وما عـاد بإمـكاني أن أقـرر أن أنسـاك وأحيـا

فأنت لا تُنسى ولا تنفصل عن روحي .. ولا تتركني

بلغت مني مبلغ العشق من مراهقة عذراء القلب

ولم أجد أقسى من فراقك الأبدي على ضحكتي

لينتهي رنين الفرح بها ..

لينتهي كل أمل وضعته أمامي

وكل شيء كنت أفكر فيه ليجعلني أعود لأبتسم وأكمل الحياة

كنت أنت المستقبل الذي تمنيت أن أعود لأجده في انتظاري

قـد أعـود ولكنـك لـن تنتظـرني لأني لـن أنتظـرك ولا يجـب أن أتمنـاك بعـد اليـوم

كم أشعر بالضعف ..

لست حزينة بقدر ما أنا ضعيفة

كشخص لم يأكل لشهور .. ولم يرَ ضوء الشمس لسنوات

وتملك المرض من جسده الهزيل

لم أكـن أدرك أنـك كل قـوتي .. كيـف كنـت تحتلنـي بتلـك الصـورة وأنـا لا أعـرف

كنت أعلم أني عشقتك ..

لكن لم أكن أعلم أني أحيا بك

أنا حقاً أحيا بك ..

فأنـت لي بمثابـة الوطـن الـذي أنتمـي إليـه ولم أعـبره يومًا ..

أشـعر وكأني قطعـة منـك ليسـت منـك حقًـا .. كبعـض الشـوارع والمنـازل التـي كلـما نظـرت إليهـا شـعرت بالأمـان ولكنـك لم تدخلهـا مـن قبـل

فذاك الشعور هو أكثر ما يؤلمني الآن

لم يؤلمني فقدانك بقدر ما آلمني فقدان الوطن بك ..

لكن كيف ولما أحيا بك !!

وتلك المرات التي رأيتك وحدثتك فيها كانت أقل من أن أنسى

تفاصيلها .. حتى الجُمل التي قلتها لي أتذكرها كلها

ألم أخبرك بأن لا تفكر يا عقلي

ألم تدرك العقاب الذي سيحل بقلبي نتيجة تمردك

لأجـد صوتـاً بداخـلي يحدثنـي قائـلًا لا يجـب أن تفكـري في الأمـور بتلـك الطريقـة

فلتتذكـري لمـا وافقتـي .. أنـتِ أردتي شـيئًا سـاميًا فـلا تلوثيـه بمثـل هـذا الضعـف البغيـض، كان هـذا القـرار نابـع مـن قوتـك

وأنت تدركين أنكِ قوية بما يكفي لتضحي

وتلك التضحية تضحية هينة في سبيل أن يصبحوا بخير

فالحمد لله أن ثمن التضحية مجرد حب ..

حب لم يكتمل والحمد لله أنه لم يفعل لتستطيعي أن تقومي بما يتوجب عليكِ ولتأخذي مثل هذا القرار .. فلتتماسكي فهذا ليس الوقت المناسب للاستسلام

رددي كثيرًا « حسبي الله ونعم الوكيل «

وانهضي ..

***

ليبدأ النهار ..

وأنا أحاول أن أرتدي ملامح السعادة وانتظر « زوجي « المستقبلي

لا أحتمل تلك الكلمة على لساني فكم هي مُرة ..

فلتنسي أمر الزواج الآن

اليوم هو السبت

لم يتبقى سوى يومان .. هل بإمكانه أن يوقف فيضان الدم بالفعل

هل أثق به ؟ .. و كأن هناك حل آخر !!

ليأتي هو فيقطع على أفكاري

+ صباح الخير

* ويقف عند باب مكتب الممرضات *

- صباح الخير

+ لم أكن أعلم أني سيء هكذا

- لما تقول هذا ؟

* قلتهـا وأنـا لا أبـدي لـه أي اهتـمام فكنـت أفتـش في الأوراق عـن مجموعـة تقاريـر*

+ لما آثار البكاء على وجهك ؟

- أنا !! .. و لما قد أبكي ؟

+ إذن أخبريني لما تبدو عيناكِ متورمتان

ولا تهتمين إذا كنت موجود أم لا

- هـذا ليـس صحيـح عينـاي ليسـتا متورمتـان وأهتـم بوجـودك .. أنـا فقـط مشـغولة

+ لما تكذبين ؟

- كيف ستنقذ الجميع ؟

قلتها وأنا أخرج من المكتب وأذهب لغرفتي

+ لا تغلقي الموضوع

❋ ليأتي خلفي❋

– لا يوجـد موضـوع لأغلقـه، أنـت مـن تحدثـت في شيء خـارج السـياق

❋ أدخل الغرفة وأترك الباب مفتوحًا ويقف هو عند الباب ❋

+ أنـتِ سـتصبحين زوجتـي هـل تعرفـين معنـى هـذه الكلمـة ؟؟

– ماذا تقصد ؟

+ أقصد أنكِ يجب أن تفصحي لي عن ما تشعرين

– وإن لم أفعل ؟

+ لن نتزوج

– ما علاقة ما أشعره بأمر الزواج بيننا

+ هل تمزحين ؟؟

– هل حقًا ما أشعره سيغير من الأمر شيئاً معك

سواء كنت أرغب أم لا، لا يوجد خيار ..

❋ مـا هـذا الـذي قلتـه .. لمـا دومًـا أفسـد الأمـور، مـا كان يتوجـب عـليَّ أن أجعلـه يشـعر بـأني لا أرغـب بتلـك العلاقـة لربـما يُنهـي الأمـر ويتركنـا نهلـك ❋

+ بلى أنتِ مخطأة ... أنا أحبك

لكني لست وحشًا حتى أتزوجك عنوة

– أنا آسفة لم أقصد ما قلت

+ بلى تقصدين

– ....

+ سأطلب منكِ طلباً صغيراً .. اسمحي فقط لقلبكِ أن يشعرني، أعطيه فرصة ليسمع نبضي ولا تغلقي كل السُبل إليكِ

ولا تقلقي بشأن القرية وأهلها سوف أنهي هذا الأمر اليوم

وسيكون كل شيء كما تمنيتِ

وداعًا...

❋ ليرحل وملامح الحزن على وجهه ❋

كم أكرهني عندما أقسو، وتلك المرة كنت قاسية على شخص ذنبه الوحيد أنه أحبني .. متى سينتهي كل هذا العبث .. متى سأرتمي بين أحضانك يا أماه ؟؟

فقد بت أخاف من كل شيء ..

هل سيكون بخير ؟!

فجـأة سـألت نفـسي في قلـق عندمـا تذكـرت كيـف كان يبدو عندمـا رأيتـه أول مـرة وأظـن أن تلـك المـرة في غايـة الصعوبـة.. أصعـب مـن سـابقتها وقـد يُقتل

هــل ســأظل انتظـر بهــذا القلــق طــوال اليــوم، ذهبــت وجلســت مــع الطفلــين

وأنـا لا أتوقـف عـن تخيـل مـا سـيحدث .. لمـا لا أتخيـل أي أمـر يوحـي بالطمأنينـة

أظلمت الدنيا .. وأنا لا يمكنني النوم ..

أرجوك اجعلني أراك لأطمئن أنك بخير

لأشكرك كثيرًا ..

لأبتسـم لـك بعـد كل تلـك النظـرات الكئيبـة التـي تحملـت أن تشـاهدها عـلى وجهـي

لكن الفجر اقترب ولم أره

ثـم انطلقـت الشـمس بإشراقـة جديـدة وصاحـب الملامـح الهادئـةلم يظهـر بعـد

حان وقت العمل وذهبت للمشفى

انتهى الدوام ..

وحان موعد الغروب

ولم يأتي ..

ماذا قد يكون معنى هذا ؟ .. ليس الموت ثانيةً

إن حدث له مكروه فهذا يعني أننا جميعًا انتهى أمرُنا

دب الفـزع في أرجائـي مـن تلـك الفكـرة حتـى نظـرت مـن نافـذة منـزل الأطفـال

فرأيته ...

حمدت حينها الله كثيرًا فلقد كاد أن يتوقف قلبي

ذهبـت لـه سريعًـا لأطمئـن أن الأمـور صـارت كـما أردنـا وأنـه بأفضـل حـال

وعندما التقينا ابتسم لي ابتسامة أعادت لروحي سكينتها

فابتسمت له في صفاء

+ لأول مـرة تبتسـمين لي منـذ أن طلبـت منـكِ الـزواج الأمـر مُضحـك حقًا

– هلا سامحتني على كل ما فعلت

+ أنا لست حزيناً منكِ .. أنا حزين من نفسي

أنتِ كنتي مُحقة في كل ما فعلتي

فـماذا كان يمكنـك أن تقـولي لرجـل يخيرك بـين الـزواج منـه ومـوت مئـات الأشـخاص

انسي كل هذا .. أنا أتيت الآن لأخبرك ما يُفرحك لا لنتعاتب
لقد سويت كل الأمور ... لن يحدث أي مكروه لهم

– حقًا هل نجح الأمر ؟!!

+ أجل يا سيدتي تستطيعين أن تنامي بارتياح

* تنهدت مبتسمة *

– كم أنا سعيدة .. لا أعرف كيف أشكرك

بلى ..

......

أعرف

إنه وقت الوفاء بالوعد

علينا ... أن .. نتزوج ..

+ لا ..

ليس عليكِ أن تفعلي فلتنسي الأمر كأنه لم يكن

– ماذا تقول ؟

+ لقد فكرت جيدًا ليس هذا ما يفعله المحب، إن المحب يسعد بسعادة من يعني له الحياة وعندما تكونين معي ستذبلين يا وردة البنفسج، وأنا أريد أن أراكِ تنشرين عطر الفرح كل يوم حتى وإن كنتِ بعيدة كل البعد عني

سيصل عبيرك إليَّ وسأتخيلك تتفتحين مع كل صباح

لتستقبلي شعاع الشمس بسعادة وتنغلقين عليه وكأنها أشرقت فقط من أجل أن تعطيكِ هدية النهار وتغرب

أنتِ أجمل بكثير مما تبدين عليه، لا أظن أني سأجد لكِ مثيل

رغم كثرة ورود البنفسج ورغم شروق الشمس كل يوم وغروبها

إلا أن .. وردتي تلك نادرة مثل زهور الجبال

- ....

* لم أستطع أن أنطق بكلمة من دهشتي *

+ فقط تناسي الأمر كأني لم أخبركِ بشيء

- وماذا جعلك تغير قرارك إن كنت تحبني كما تقول ؟

+ لا شيء

- أنت تكذب

+ أنا لا أكذب

- بالتأكيد هناك سبب ما .. أستحلفك بالله أن تقول

+ لم أكن أريد أخباركِ لكن حسنًا سأفعل ...

في نفس اليوم الذي ذهبت فيه لأتفاوض بشأن القرية حدث أمر غريب عندما عدت للمنزل ..

راودني حلم

حلمتُ بكِ وأنا أسجنك معي في غرفة واحدة فذهبتِ أنتِ لأحد الأركان وأخذتِ تبكين كالطفل الرضيع ... حاولت أن أهدئك لكني لم أنجح

بعدها فتحت باب الغرفة فوجدتكِ توقفتي عن البكاء ونظرتي إليّ في رجاء شديد وعيناكِ تتمني أن أعتق سراحكِ عندها قلت لكِ

أنتي حرة فرأيتكِ تبتسمين وتخرجين من الغرفة، ثم نظرتي إليَّ وقلتي شكرًا لك واختفيتي .. أدركت أنها رسالة من الله أن أتركك وشأنك

فأنتِ لا تستحقين مني أن أعذبك معي بعد أن أنقذتي حياتي

- ولما لم تكن تريد إخباري ؟

+ خجلت من نفسي كثيرًا ولهذا تأخرت في المجيء

كيف كنت أريد أن أجبركِ عليّ .. كيف كنت أريدكِ أن تتزوجيني شئتِ أم لا

كنت أنانيًا لدرجة أن الله تولى أمركِ هو وتكفل بتخليصك من بين يداي

– لم يكـن الأمـر بهـذا السـوء .. لا تكـن قاسـيًا عليـك فـكل شيء أصبـح عـلى مـا يـرام الحمـد لله لقـد أنقـذت الجميـع وأنقذتنـي أنـا أيضًـا

من الموت والحزن .. أنت تستحق الكثير

+ الحمد لله ... هيا يجب عليكِ أن تعدي حقائبك

– لماذا ؟

+ ستعودين إلى الوطن

– لا يمكنني

+ تقصدين الطفلين

– أجل

+ لا تقلقي بشأنهما

– الأمر ليس بتلك البساطة لقد تعلقت بهما وتعلقا بي

+ ألم تشتاقي لعائلتك

– بلى كثيرًا ...

+ إذن يجب أن تعودي

– لكن إذا عدت لن أتمكن من القدوم مرة أخرى

+ لا يمكنـكِ أن تأخـذي كل شيء في وقـت واحـد وسـيأتي اليـوم الـذي سـتفارقينهما فيـه فلتفعـلي الآن قبل أن تتعلقـي أكثر

و تصبح العودة بالنسبة إليكِ غربة هي الأخرى

- دعني أنظر ماذا سأفعل

+ حسنًا .. فكري

و بخصوص الطفلين فأنا سأعتني بهما كما كنتِ تفعلين وستساعدني والدتي وأختي فلا داعي للقلق .. هذا أقل ما يمكنني أن أقدمه لكِ .. وداعًا ..

- أشكرك على كل شيء

وداعًا ...

بعد ثلاث سنوات من الغربة الشاقة ...

أتساءل بصدق هل يجب أن أعود .. هل يحق لي أن أعود !!

مرّ عليّ شهراً كاملاً من التفكير

لا أعرف كيف سأحيا في بُعدي عن الطفلين

لا أستطيع أن أحسم أمر عودتي .. ولا أستطيع أن أتجاهل شوقي لعائلتي

لقد بت أخشى العودة واعتدت الغربة كغرفتي الصغيرة في منزل أبي

واعتدت الحياة الصعبة

لقد تعبت جدًا .. لكني أيضًا اعتدت المتاعب ... وتغيرت

لم أحــرز تفــوق يُذكــر وليــس لــدي مــا أقصــه عليكــم مــن انتصــارات كبــيرة

لكنــي بــت ذات قــوة عــلى الحــرب والمحاولــة .. والتمــرد والحرمــان

أتمنى أن تدركوا أن هذا انتصارًا

أبي، أمي .. أخوتي ... أصدقائي .... يوسف

هل سأجد منكم من يضمني ويحنو عليّ

أم سيدعونني الجميع بالمختلة التي باعت عمرها دون فائدة

ولم تفكــر في مشــاعر أبيهــا وأمهــا ،ولم تكــن بجوارهمــا ترعاهمــا في ســنوات عمرهمــا الأخــيرة .. أو ربــما يكــون هــذا محــض خــوف لا أكثــر وأجدكــم في انتظــاري متلهفــين لي كــما أتلهــف لكــم مبتســمين لي فرحــين بلقائــي وســلامتي

من يعلم ..

يا رب أسألك خيرًا

لقد قررت العودة على نهاية الأسبوع

يدمينــي ألم هجركــما .. وأرهقــت عينــاي مــن غــزارة الدمــوع التــي تُســقطها كل ليلــة

كــم سأشــتاق لكــما.. كــم أخــاف عليكــما لكــن مــا مــن حــل غــير هــذا أمتلــك في يــدي ..

يجب أن أعود قبل أن تنغلق السُبل ولا أستطيع الخروج إلا بعد أعوام أخرى

ليت بإمكاني أخذكما معي إلى مصر ..

لكنه وطنكما الذي لا يحق لي أن أبعدكما عنه مهما كانت الأسباب

حيث أبيكما والأرض والأهل، ومهد الطفولة الذي من حقه عليكما أن تكبرا في حبه

وتتشربا الغيرة على ترابه من حكايات الأجداد والأبطال القدامى ..

وأن تنالا شرف الشهادة في سبيل حمايته

سامحاني يا طفلاي لأني جعلتكما تريا فيَّ عوض الله عن أمكما

وسأترككما بعد كل هذا الحب ... أرجو أن تسامحاني ذات يو م

حاولت أن أمهد لهما أمر بُعدي الدائم عنهما .. حاولت أن أساعدهما في تقبل عائلتهما الجديدة والحمد لله أن الأمر حدث بسلاسة

وكعادتي أكره لحظات الفراق .. غادرت دون أن يعرفا بأمر سفري

سيعتدان على أي حال وسيحبان العائلة الجديدة .. ربما أكثر مني

وأنا أتمني هذا ..

***

الوداع يا سنوات الغربة وأهلًا بكِ يا بلادي من جديد

في السيارة وفي طريقي للمنزل

هيا أرجوك أسرع ...

أشتاق لغرفتي وسريري .. أشتاق للنوم العميق

لا أصدق أن كل شيء انتهى وأني سأعود أخيرًا

إلي حضن أمي ودفء أبي وشجار أخوتي .. و لابتسامتك

لا أستطيع الصبر حتى أصل أكاد أقفز من نافذة السيارة وأطير فرحًا إليكم

باقي من الزمن ساعتين وسأكون في المنزل .. ساعتان لا يمران

أراقب الوقت بشكل مستمر

ساعة حمقاء .. لما لا تتحرك تلك العقارب .. لما كل شيء أصبح يسير بسرعة السلحفاء .. حتى الثانية أصبحت تمر خلال دقيقة كاملة

هل يمزح الوقت معي !!!

متوتـرة وضربـات قلبـي تـكاد تُكسر عظـام قفـصي الصـدري مـن كثـرة الطـرق عليهـا

سعيدة وكأنني ذاهبـة للجنـة، وكأن تعـب الحيـاة والخـوف والوجـع اختفـوا مـن الوجـود ولـن يـأتي بعـد اليـوم غـير الراحـة وكل مـا أحببـت واشـتهيت

أغمضت عيني مُبتسمة وغرقت من تعب السفر في النوم

حتـى أيقظنـي سـائق السيارة بصوتـه العـالي وهـو يتحـدث مـع أحـد الـركاب

فتأكـدت حينهـا أني عـلى أرض أم الدنيـا وليسـت أضغـاث احـلام ...

باقـي مـا لا يزيـد عـن خمـس دقائـق .. ياليتنـي نمـت منـذ بدايـة الرحلـة

وأخيرًا مر الوقت ..

نزلت من السيارة مسرعةً وركضت إلى المبنى

لا أحتمل ... أريد أن أضمكم إلى قلبي

وصلت إلى باب شقتنا

فسـمعت صـوت أمـي تضحـك وأخـي يقـص عليهـا مـا حـدث معـه اليـوم في المدرسـة

أشعر بطمأنينة عظيمة

أكاد أبكي من فرط الفرح كما بكيت يومًا من فرط الألم

الحمد لك يا إلهي ... الحمد لك حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه

أطرق الباب بيدين ترتعشان

أريد أن أختبأ .. أرجوكم لا يفتح أحد

لا أعلم ماذا يحدث لي ... أكاد أجن من تخبط مشاعري

هيا يا فتاة فلتصمدي

تنفسي بعمق ...

هكذا هي لحظات الخوف الشديد والسعادة الزائدة

تجعلنا لا نفهم ماذا نريد وماذا سنفعل

تجعل التفكير يتوقف وجسدك لا يستمع إليك

هناك خطوات قادمة ..

تقترب ...

أبتسم وأضطرب وأتصبب عرقًا

وينفتح الباب ...

نظرت نظرة طويلة غير مصدقة لما أراه

أمي ..

بعد كل تلك الأعوام ها أنتِ أمامي

لتنظر إليَّ نظرة مصدومة سعيدة دامعة

+ لا .. أصدق ... ابنتي

– أمي

* أرتمـي في حضنهـا وأضمهـا بقـوة وكأننـي أراهـا للمـرة الأخـيرة فتضمنـي بشـدة وتضربنـي ثـم تبكـي *

+ أيـن كنـتِ كل تلـك الأعـوام وكيـف اسـتطعتِ أن تفعـلي بنـا هـذا

هـل كنـا سـيئان أنـا وأبيـكِ لدرجـة أن تتركينـا لا يعلـم حالنـا إلا الله

* في وسط دموعي *

– سـامحيني يـا أمـي .. فلقـد عانيـت في بُعـدي عنكـم، ويشـهد الله أني كنـت أفكـر فيكـم وأشـعر بالحـزن الشـديد لكـن صدقينـي هـذا مـا كان يجـب عـليَّ فعلـه

ثقي أني فعلت الصواب فحسب.. أرجوكِ اعفي عني

* نظرت إلى بشفقة ثم ضمتني إلى صدرها مرة أخرى *

+ كفـاكِ يـا حبيبتـي لا تبكـي .. مـر مـا قـد مـر والأهـم أنـكِ عـدتي إلينـا سـالمة الحمـد لله .. هيـا ادخـلي لترتاحـي أراكِ مُتعبـة

* أنتِ لا تعرفين كم اشتقت لحنانكِ هذا ورحمتكِ بي *

دخلت منزلي الذي لم يتغير فيه سوى القليل من التفاصيل

ورأيت أخي الصغير المشاكس فضممته بقوة وأخذت أقبله

جلست بعدها أتحدث مع أمي، ثم تركتني لتصنع لي بعض المأكولات الشهية

فبدأ أخي يقص عليَّ مواقفه الحقيقية العجيبة وكان مزعجًا كعادته

ومُضحك بشدة .. فقد أكثر الحديث والأسئلة الغريبة

+ لما يضع الأجانب عدسات لاصقه تجعل أعينهم مُلونة

هل جميعهم لديهم مشاكل في الرؤية ؟؟

- ماذا تقول ؟؟ ... عدسات لاصقة

أي عدسات لاصقة !! .. هذا لون أعينهم فحسب

+ فهمت الآن أي أنهم جميعًا يقومون بعمل عملية جراحية لتغيير لون أعينهم فيصبحوا كلهم بنفس اللون الفاتح، الأمر يشبه الزى الرسمي الذي يرتديه جميع الموظفين

* لينظر إليَّ نظرة المحقق كونان عندما يتوصل لحل اللغز *

- يا إلهي .. كيف تأتيك تلك الأفكار !!

إنهـم لا يجـرون أي عمليـات جراحيـة هـم يُولـدون بأعـين خـضراء أو زرقـاء

* فيضحك *

+ هـم يبقـون الأمـر سرًا عليـكِ لكـي لا تعـرفي حقيقتهـم فـلا تكـوني سـاذجة

- مــــاذا ؟؟ « يبقون الأمر سرًا » و « لا تكوني ساذجة «

أأنت حقًا لا تصدق أنهم يُولدون هكذا ؟!

+ بالطبع لا .. فأنا لست مثلكِ يا حمقاء

جميـع البـشر يُولــدون بلــون واحــد وهــو البنــي والباقيــة يرتــدون العدســات اللاصقــة

* تلك المرة لم أستطع أنا التوقف عن الضحك *

- أجـل أنـت مُحـق جميعهـم يرتـدون العدسـات اللاصقـة بنفـس اللـون كالـزى الرسـمي للموظفـين، أنـا لا أعـرف كيـف اسـتطاعوا الكـذب عـليَّ وكيـف صدقتهـم أنـا

+ لا أعــرف مــاذا كنــتِ ســتفعلين مــن دوني فأنــا عبقــري وأمثالــك البســطاء لا يدركــون الكثــير مــن الحقائــق

- أنت حقًا أنقذتني

ذاك الشـقي ذو العـشرة أعـوام صاحـب الخيـال الواسـع لم يتوقـف عـن الـكلام لدقيقـة .. أخـذ يتحـدث ويتحـدث أتعجـب كيـف لا يتعـب ..

عـادت أختـي إلى البيـت بعـد يـومٍ دراسي شـاق لتندهـش وتـصرخ بفـرح عنـد رؤيتـي

فأفزع أنا ..

سـامحيني عزيـزتي .. آآه لـو تتدركـين مـا يعنيـه الـصراخ لي.. وبـما يذكرني

أعوذ بالله .. اللهم لا تريني فيها بأسًا يُبكيني

أختي صاحبة الأربعة عشرة عامًا المراهقة المبتدئة في بيتنا

تحتاج إليَّ في تلك الأحيان كثيرًا

لاحظـت في عينيهـا كـم الأحاديـث التـي تخبؤهـا بداخلهـا مـن أجلي فلقـد كنـا صديقتـين مقربتـين قبـل أن أسـافر، لكـن لا أعلـم هـل غـيرت السـنوات هـذا أم لا ؟

لكنهما معًا -هي وأخي-لم يتغيرا

مازالا يتشاجران دائما كالعادة وعلى أتفه الأمور

لما يغير الزمن كل شيء ولا يغير بهما هذا الأمر المزعج ؟

تركتهما يتشاجران وذهبت لأنام قليلًا

ونمت قليلًا بالفعل ...

ثماني عشرة ساعة من النوم العميق حتى ظنوا أني مت

أعتقد أنهم لو لم يوقظوني لكنت أكملت نومي ليومين آخرين

وأول من تذكرت عند استيقاظي .. أبي

+ أين أبي يا أمي ؟

– ذهب للعمل يا حبيبتي

+ كنت أريد أن أراه اشتقت إليه كثيرًا ... كيف لم يوقظني

– سيعود وستجلسين معه حتى الشبع

+ حسنًا سأنتظره

– هو حزين منكِ بعض الشيء

+ كنت أعرف هذا .. لذا لم يوقظني

أهو غاضب مني إلى الحد الذي يجعله لا يريد رؤيتي

– لا .. هو يكابر فقط .. فأنا رأيته البارحة وهو يتسلل إلى غرفتكِ خلسة ليقضي ما لا يقل عن ربع ساعة متأملًا ملامحكِ

+ فعلًا يا أمي ؟!

– أجل يا جميلتي فهو رغم كل شيء أبيكِ الذي اشتاق لابنته البكر ..

فتاته التي سيظل يراها طفلة طائشة مهما فعلت

حقًا منذ أن عدت عادت إليَّ طفولتي بكل براءتها

فمازالوا كما هم عائلتي التي تحبني وتثق بي

لم أتمنـى أكثـر مـن هـذا .. كان أكـبر مخـاوفي ألا تقبلـوني بينكـم، أو أن يذهـب أحدكـم إلى الأبـد دون وداع لكـن الحمـد لله أنـه كُتـب لي أن أراكـم جميعًـا مجـددًا وبأحسـن حـال

وعـاد أبي ليـلًا ليجـدني جالسـة بالقـرب مـن البـاب في انتظـاره

أخـذ يبحـث عـن أمـي داخـل غـرف المنـزل وكأنـه لم يـرني .. فتتبعتـه أنـادي

- أبي

+ ....

- أبي

+ ....

- لما لا تجيب عليَّ ؟

* ليقول موجهًا الكلام لأمي *

+ سـأذهب لأنـام قليـلًا .. حينـما ينتهـي تحضـير العشـاء أيقظينـي

- أريد أن أتحدث معك .. لن تنام قبل أن نتكلم

* ووقفت أمام الباب لأمنعه من الخروج *

+ ابتعدي عن طريقي

- لما كل تلك القسوة يا أبي

+ تسـألينني أنـا لمـا كل تلـك القسـوة !! .. أخبرينـي أنـتِ لمـا كل تلـك القسـوة

* قالها بصوت غاضب جدًا *

- أنت لا تعلم شيئا .. أنا كنت ...

+ أنـا اعلـم أنـكِ كنـتِ تقومـين بـشيء يتوجـب عليـكِ فعلـه

أنـا أعلـم هـذه الإجابـة ولا أريـد أن أعـرف مـاذا كنـتِ تفعلـين

لا يوجد في هذا العالم شيء سيجعل ثقتي بكِ تهتز

ما يؤلم قلبي حقًا هو عدم سؤالك عنا

سـؤال واحـد فقـط تمنيتـه عـلى مـدار عامـين ولم يصـل حتـى أني كـدت أصـدق أنـكِ لن تعـودي ... فلـما كل تلك القسـوة ؟!

- كنـت خائفـة مـن أن أتحـدث إليكـم فاتـرك كل مـا أفعـل وأعـود .. كنـت أشـتاق إليكـم بشـدة .. كنـت أتـألم كـما تتألمون

ولكنـي كنـت أدرك أني إذا حدثتكـم سـيكون هـذا بمثابـة فتـح جـرح أحـاول أن أتركـه يلتئـم لكـي أسـتطيع أن أحيـا بعيـدة

صدقنـي يـا أبي كنـت خائفـة مـن أمـور كثـيرة، كنـت خائفـة ألا أعـود إليكـم مـرة أخـرى، وأن ينتهـي عمـري هنـاك غريبة

لم أكـن أريـد أن تعرفـوا إذا حـدث لي مكـروه حتـى لا تشـقيا أ كثر

حاولت أن أخفف من حدة النزيف بداخلي وداخلكم

الزمـن يـداوي كل شيء هـذا كان أكثـر مـا أؤمـن بـه وأنـت كذلـك يـا أبي

* ودمعت عيناي *

+ الزمـن يـداوي كل شيء، لكـن الزمـن لا ينسـيك قطعـة مـن جسـدك

بلى ... قطعة من قلبك

كيف لي أن أحيا بقلب ناقص وينسيني الزمن هذا !!

أنتِ كنتِ أكثر قسوة مما تتخيلين وأكثر قوة مما أتخيل

- سامحني يا أبي

+ وكيف سأنسى ألم تلك السنوات السابقة

- سأنسيك إياه ..

من تلك اللحظة لن أبتعد عنك حتى يتوفى الله أحدُنا

+ أتتذكرين ماذا كتبتِ لي في آخر رسالة منكِ

- ماذا ؟

« سـأعود لأرتمـي بحضنـك متـى اسـتطعت ذلـك .. أعـدك «

ألم يحن الوقت لتفي بوعدك

- أبـــي ...

* ارتميـت بـين أحضانـه وأطلـت البـكاء حتـى أخرجـت مـا تبقـي في نفـسي

من أثر جروح الفراق .. *

***

العودة للحياة ..

هكذا أطلقت على المرحلة القادمة من عمري

لا أصدق أن الأمور تغيرت وأصبح كل شيء جيد

نوعًا ما ..

كنـت أتصـل بالمشـفى مـن حـين لآخـر لأعـرف أخبـار صغـيراي

والتي كانت تسعدني وتشقيني في آنٍ واحد ..

أخـبروني أنكـما تأقلمتـما مـع العائلـة الجديـدة وأنكـما بأفضل حال ولكــن ..

لا تتوقفان عن السؤال عني وعن متى سأعود

تمنيـت كثـيرًا سـماع صوتيكـما والتحـدث لكـما وأعلـم أنـه يلـزم عـليَّ ألا أفعـل ..

فبـماذا يُفيـد أن أزرع بداخليكـما أمـل وأنـا أعـرف أني قـد لا أعـود لأرويـه

أتساءل متى سأغلق الخط دون أن تبلل دموعي الهاتف !!

عليَّ أن أكون أقوى وأتأقلم أنا الأخرى ..

أليس كذلك ؟

وكأن الأمومة تُنسى !!

عــلى أي حــال فالحيــاة لــن تتوقــف في انتظــار حــضرتي لأتعــافى

يتوجـب عـليَّ البـدأ مـن حيـث توقفـت لأكمـل دراسـتي ولأكمـل سـنين النجـاح التـي تمنيتهـا لـذاتي .. ولأراك ..

فمنـذ أن خطـوت أول خطـوة هنـا وأنـا أتمنـي رؤيتـك في كل ثانيــة تمر

أتعجــب كيــف بعــد كل تلــك الســنوات مــن الغيــاب مازلــت أنــت وحبــك كــما أنتــما بداخــلي

لما أنت يا رجل !!

لقد تماديت كثيرًا ...

تسكنني وكأن روحي ملكيتك الخاصة وكأنها بيتك ووطنك وفردوسك

تتشبث بها وكأنها ملاذك الأخير من العذاب

لما لا تتركني أحاول الحياة بدون أن أنبض لك وبك

أنا أريدك أن تهجرني .. اتركني خاوية ..

لربما أشعر بارتياح تمنيته منذ أن التقيتك

أن أنام دون شوق يأن في صدري وألا أستيقظ على صرخات قلبي باسمك

رحماك ربي متى سيتوقف هذا الشعور ؟؟

فحنيني إليه فاق طاقتي

فأنا تلك الأخرى أنتمي إلى روحه

وأتمنى أن تأتي اللحظة التي أعود فيها لمسكني به

إنه محرابي الذي يردني إلى النور ورمز النقاء في عالمي

أحتاجه ليأخذني إليك يا الله .. ليدلني على الصراط

ليقربني منك أكثر فأكثر .. أحتاج حقًا أن أقترب ..

أحتاج أن أرتاح قليلًا من عناء السفر بالدنيا

أحتاج أن أسير معه طريقه نحو الخلود .. نحو الجنة ..

***

بعد مرور أيام استجمعت ذاتي ونويت البحث عنك

لكـن كيـف ومـاذا سـأفعل بعـد أن أجـدك هـذا مـا لا أعرفـه ..

ذهبت لزيارة إحدى صديقاتي المقرّبين ..

ضحكنا وتذكرنا الكثير من الأمور الرائعة

تحدثنـا أكثـر مـن أي وقـت مـضى منـذ أن تعرفنـا، لكـن لم أخبرهـا بحقيقـة سـفري

هـي تعـرف فقـط أني سـافرت كل تلـك السـنوات لأدرس فحسـب فقصصـت عليهـا بعـض المواقـف التـي حدثـت لي في الجامعـة عندمـا كنـت بالخـارج ..

وبينما كنا نتكلم قلت لنفسي لما لا أسالها عنك ؟!

هي لا تعرف حقيقة مشاعري تجاهك .. لا أحد يعرف

فأنت سري الكبير .. أو هذا ما كنت أظن !

حاولت أن أعرف أين أنت الآن وماذا تفعل وكيف تحيا ؟

فسـألتها في شيء مـن الدعابـة وكأننـي لا أهتـم وكأننـي أسـأل مجـرد سـؤال عابـر

ولـــن تعنـــي لي الإجابـــة عليـــه شيء ســـوى أنهـــا إرضـــاءً لفضـــولي

لكنهـــا توقفـــت عـــن الضحـــك وتبدّلـــت ملامحهـــا في جـــزء مـــن الثانيـــة وقالـــت

+ لا تعرفين عنه شيء منذ أن سافرتِ !!

- أجل ..

+ ....

أما زلتِ تحبينه ؟؟

- ماذا !! .. من أين عرفتِ ؟؟ .. كيف ومتى ؟؟

* فضحكت قائلة *

+ وهل الحب يخفى !! .. فما من مُحب إلا وفضحته لمعة عيناه

وأنـتِ خاصـةً دونًا عـن الجميع كان العشـق ظاهـرًا عليكِ ..

كنـــت ألحظـــه في نظراتـــكِ الخاطفـــة عليـــه عندمـــا نكـــون وســـط الأصدقـــاء

والطويلة عندما تكونين وحدك..

في حديثك معه ودفء عيناكِ وهي واقعة على عينيه

في وصفـك لـه والفـرح الـذي يبـدو عـلى وجهـكِ عندمـا تسـمعين أحـدًا يتحـدث عنه، في حزنـك عندما يصيبـه مكروه ..

في بكائـك الحـاد الـذي بكيتـه آخـر يـوم لنـا في الامتحانـات النهائية

ولما سألتكِ لما تبكين قلتِ لأنكِ ستشتاقين لنا

لكنـي كنـت عـلى يقـين أن تلـك الدمـوع هـي خوفًـا مـن الاشـتياق لــه

وهــا أنــا الآن أراه مجـددًا في إظهــارك عــدم الاكــتراث بــما سـأقول وقلبـك يـصرخ

«هيا أجيبي بسرعة أريد أن أطمئن»

– كيـف رأيـتِ كل هـذا .. كيـف اسـتطعتِ أن تلاحظـي كل تلـك التفاصيـل ؟؟

+ أنا فتاة مثلك وأتفهم كيف تكون المرأة عندما تحب

– أنا غارقة ..

+ أنا أعرف ... أنتِ غارقة منذ زمن

سـأقول لـكِ سرًا .. كنـت سـعيدة بسـفركِ أكثـر مـن حـزني عـلى فراقـك

لأني خفت عليكِ بشدة من هذا الحب ..

أنـتِ اخـترتي أكثـر الرجـال بؤسًـا عـلى الكوكـب ووقعتـي في غرامـه

- هههههههه ..أضحكتني جزاكِ الله

+ بالله عليكِ ألست محقة

- حرام عليكِ .. لما تقولين هذا

+ حسنًا سأكون منصفة قدر استطاعتي .. لن أنكر عليكِ أنه رجل عظيم

وشجاع شجاعة لا أظن أني سأراها في زمننا هذا مرة أخرى

ولن أنكر عليكِ أنه شديد الاحترام والتدين لدرجة تجعلني في كثير من الأحيان أتعجب منه .. وأنبهر بقوة صبره وإيمانه

- كنت أعتقد أني الوحيدة الذي أراه بهذه الصورة

+ كلا فكلنا نعرف هذا ونكاد نقسم به

- هذا يجعل منه جيداً جدًا بل رائعاً .. إنه إنسان مثالي .. ما المشكلة إذن

+ المشكلة أن أمثاله لم يُخلقوا للحب .. هؤلاء لا يفكرون في الزواج أو الارتباط .. هذه الأمور آخر اهتماماتهم

هم سجناء قضية واحدة و يُسخِرون أنفسهم تحقيقًا لها

- ليس الأمر كما يبدو لكِ .. فأنا أتفهمه هـ ..

+ بلى هو كذلك ..

يجب أن تتوقفي عن حبه .. أو أن تحاولي على الأقل

هذا الحب سيشقيكي أكثر مما سيسعدك

– أنا أعرفه جيدًا يا صديقتي ..

+ حبيبتي استفيقي فأنت لا تعرفين عنه شيء

هو لن يبالي بكِ أو بِحبك .. هو رجل «وهب نفسه للموت» ..

هذه هي الحقيقة التي يجب أن تواجهيها اليوم أو غدًا

– هل تعرفين أي أخبار عنه .. طمئنيني عليه أرجوكِ

+ أنا سمعت أمراً ما لكني لا أعرف مدى صحته

– ماذا سمعتي ؟؟

+ لا تهتمي .. دعي اليوم يكتمل بسعادة كما بدأ

– ماذا حدث ؟؟

+ هي فقط أقاويل كثيرة وبالتأكيد كلها كاذبة

– هيا تحدثي .. أخبريني ماذا تعرفين

* قلتها بنبرة حادة مليئة بالخوف *

+ لا تقلقي ..

- أكملي .. أنا أسمعك

+ كل ما أعرف أنه اختفى من عام تقريبًا

ومنذ عدة أشهر وصلتني أخبار أنه ...

....

وُجد مقتولًا بالقرب من منزله ..

- ....

* فقط نظرة غير مصدقة على وجهي ووجع يجتاحني *

- تألمت كثيرًا على أمل أن أعود لأنظر إليه مرة بعد ..

هل تظنين أنه ذهب حقًا دون أن أخبره أني أحبه ،

وأنه لي سكن وعالم خاص ألجأ إليه عندما أخاف أو تؤلمني عقبات الحياة

+ لا أظن ...

صدقيني سيكون بخير ..

يجب أن يعود .. يجب أن يكون هنا من أجلكِ

- سأحاول أن أصدق هذا ... سأذهب الآن

+ لما ؟؟ إنها الرابعة !

- أحتاج أن أرتاح قليلًا ... أن أكون وحدي

+ أقدر هذا .. أوصيكِ أن تتماسكي يا صديقتي

أنـا ضـد هـذا الحـب مـن الأصـل وأتمنـى مـن الله أن يزيلـه مـن قلبـك بِقُدرتـه

لكـن أعـرف أيضًـا أن دعواتـك وأمنياتـك كل هـذا لـن يضيـع هبـاءً منثـورًا

ألم يحن الوقت للصابرين أن يفرحوا ..

* ابتسمت *

- وداعًا ...

+ لا تقولي وداعًا ... بل قولي إلى لقاء

* ابتسمت أكثر *

- إلى لقاء بإذن الله

عندما عدت لاحظ الجميع شرودي

لا أنصـت لمـا يقولـون .. لا أضحـك، فقـط أبتسـم عندمـا أراهـم يضحكـون..

أبتسـم ابتسـامة مزيفـة بلهـاء صـادرة مـن شـخص تائـه لا يعـي مـا يفعـل ..

أكلت قليلًا رغم أن هذه الوجبة هي المفضلة لديَّ

ذهبت لغرفتي .. أغلقت باب الغرفة .. أطفأت الإضاءة

وجلست في انتظار النوم

تدق أمي الباب وأفتح لها .. كانت فقط تريد الاطمئنان عليَّ

بالطبـع كذبـت عليهـا وأخبرتهـا أني مجهـدة مـن الطريـق ليـس إلا

أغلقت الباب مُجددًا .. عدت لسريري .. أضأت الأنوار

أخذت الهاتف وأحضرت رقمك

وضغطت اتصال ..

« الهاتف المطلوب مغلق أو غير متاح «

رغمًا عني فعلت ذلك عدة مرات متتالية

لقـد هاتفتـك تلـك الليلـة في كل سـاعة مـا يقـرب مـن عـشر مرات

لكن الرد كان واحداً في كل مرة

« الهاتف المطلوب مغلق أو غير متاح «

أدركـت أني وقعـت في أعمـق الرجـال وأقواهـم وأقسـاهم وأجملهـم خلقًـا وخُلقـاً .. وأبعدهـم كل البعـد عنـي

أنا موافقة أن تظل بعيدًا، أنا موافقة أن أظل واقعة بك للأبد

دون علمك حتى، دون اعترافي لذاتي

أنا على استعداد تام أن أنكر كل شيء شعرته

لكن كن بخير ... لأجلك ..

لأنـك تسـتحق تلـك الحيـاة .. بـلى ولكـن تلـك الحيـاة هـي مـا تحتاجـك لتكـون بهـا

ألم أقل قبلًا أنك سببي لاستمر في المواجهة

يكفينـي أن أدرك أنـك مازالـت عـلى قيـد الحيـاة لأسـتطيع المقاومـة

خسرت أطفالي والآن لا أحتمل فكرة أن أخسرك أنت الآخر

لا أحتملها

مـن أيـن لي أن أشـاهدك تبتسـم فتهـدأ نبضـاتي وتسـتقر اضطرابـات الأفـكار بداخـلي .. لأشـعر بقـوة تتخللنـي وأمـل

أريـد أن أراك لوهلـة .. وهلـة يـا يوسـف واذهـب بعدهـا حيـث تشـاء

يا الله ..

أنت وحدك تسمع حديثي وتشعرني

رده إلي ..

أشعر بأنه حي ... أشعر هذا بقوة

اجمعني به يا إلهي كما فعلت من قبل دون رغبة كلانا

فأنا الآن أدعوك أن تأتيني به

أنت وحدك قادر على هذا فأنت خلقت ذاك القلب

وأنت تدرك مدى شوقه

فاعني ..

***

كنت أعتقد أن بعودتي سأتنفس الصعداء

على أقل تقدير لن أرى دموع الآيسين مرة أخرى

و كما تجري العادة مع توقعاتي الجيدة ..

تدمرها الحياة وتلقيها في مكب النفايات الذي خلف مبنى العمارة

فلقد بلغت بي الحماقة أني ظننت أن الظلام الذي يخيم على العرب

دولة دولة ... لن يمس وطني بسوء ..

لا أعلم متى سأتوقف عن التفكير بسذاجة

فالأطفال ذاتهم قد توقفوا عن التفكير هكذا منذ وقت على ما أعتقد ...

أجل .. لقد علمت بما يحدث في البلاد مؤخرًا

ليس غريبًا أن هناك احتجاجات فهذا معتاد في أي مكان

فأنا تركت البلد وشعبها في حالة ثورة ..

ما يثير غضبي أنه قد تخرج لتحتج أو تطالب بحق

فتجد نفسك في السجن مصنف ضمن المجرمين ..

لم يسبق لي أن سمعت عن مجرمي حرية

أو مجرمي حق أو ربما عدل .. قد يكون مساواة !!

لم أعهد هذا النوع من المجرمين مسبقا

طلبت من أبي أن يقص على ما حدث في غيابي ..

و في نهاية الحديث قال لي .. الحمد لله لزلنا صامدين ولزالت الحياة مستمرة

ربما الأمر ليس بسوء ما يحدث في سوريا ظنًا من الأشخاص هنا أن الدمار ليس كما هناك فهم يرون أمامهم على التلفاز مذابح دموية

و لكن دعوني أصدمكم .. إنه كما هناك .. لا يوجد اختلاف يُذكر

الفرق الوحيد هو في شدة السُم على الفأر ..

قد تعطيه سُمًا يقتله في دقيقة وقد تعطيه سُمًا يعذبه يومان

لكن النتيجة واحدة في النهاية ... الموت

هناك الدمار يسير بسرعة والقتل بسرعة والفقر بسرعة وإبادة التقدم بسرعة

وهنـا يحـدث نفـس الـشيء ولكـن ببـطء شـديد لدرجـة أنـه لم يلاحـظ أحـد التشـابه بـين حالينـا

لــن أقــول أني لم أفكــر في أن أخــرج لدعمهــم والمطالبــة بالحقــوق الضائعــة ..

يُمكننــي أن أقــف في وجــه الظلــم وأدافــع عــن الجميــع وأحــارب وأداوي وأثــور

في أي مكان على وجه هذه الارض

أبي وأمي ليسا فيه ..

أنــا لا أســتطيع أن أبــوح لهــم بحــرف ممــا فعلــت بعــد ترحيـلي رغـم أنـه انتهـى وسرده لـن يغـير شـيئاً .. لكـن اعلـم أنهــا ســيفزعان مــن ســاعه

أنا لم أجرؤ أن أخبرهما أني رُحلت من الأصل !!

فكيف إذا ذهبت إليهم في رجاء وقلت لهم ..

أبي .. أمي .. هل تسمحان لي أن أذهب للسجن !

أو أذهب لأموت برصاصة طائشة !

هما سيخافان عليّ .. ولكن ما يمنعني هو خوفي عليهما

فللأسف الشديد أنا لديَّ نقطة ضعف ..

لكن هو ليس لديه ..

أيعقل أن !!

لقد كان يوسف وحيدًا

عاشت عائلته في المغرب رغم أصولهم المصرية

لكن أبيه وأمه عادا وتزوجا هنا وأنجباه دون أخوة .. وعندما كبر

مرضت والدته و ماتت وتلاها والده ... و بقي هو وحده

وهذا سبب كافي ليجعله يفعل أي شيء دون خوف

وهذا سبب كافٍ أيضًا ليجعلني أنا لا أعرف النوم من خوفي عليه قد يكون ما قالته لي صديقتي حقيقي .. لكن لا .. هو ليس بميت

ربما في مأزق ما .. لكن ليس بميت

سألت عنه كل من يعرفه أخبروني جميعهم أنهم لا يعلمون عنه أي أخبار منذ عام ونصف أو عامين تقريبًا .. أين اختفيت إذن ؟؟

هل يعقل أنه لا يعرف أصدقائك عنك شيئاً .. هل يعقل هذا

توصلت بعد عناء لصديقك المقرب كي أسأله عنك .. ذاك الصديق الذي أنجاه الله بمعجزة من الموت عندما كنا في المرحلة الجامعية

قص على تفاصيل آخر يوم رآك فيه .. وكان هذا قبل عام ..

«تسكعنا سويًا بعد غروب الشمس .. أصر أن نقف على كوبري قصر النيل

كنت في قمة الملل .. لكنه على الجانب الآخر كان في قمة السعادة ..

سألني أن أدعو له ..

+ من يدعو لك .. أنا ؟!

= أجل ..

+ إذا دعوت أنت لنفسك سيكون هذا كافياً ..

= ههههه .. لا تبخل عليَّ يا رجل

+ أنا لا أبخل عليك .. أنا أقول لك الحقيقة .. من أنا لأدعو لك ؟

= ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ .. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾

+ بالضبط إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. صدق الله ..

لذا أدعو أنت وسينصلح حالنا صدقني

= هههههه .. كف عن المزاح

+ كف أنت عن التواضع أولًا وأخبرني ما سر تلك السعادة .. ستتزوج ؟!

= من يتزوج .. أنا ؟!

+ لا تقلدني ..

= هههههه حسنًا ..

+ تضحك كثيرًا اليوم وهذا يقلقني

= ألا يرضيك حال .. أضحك تقلق .. أحزن تقلق .. ماذا أفعل إذن؟

+ لا تفعل شيئاً .. أخبرني ماذا بك ؟

= لقد سرت .. سرت مدة طويلة .. واليوم فقط وصلت

+ وصلت أين ؟

= بدايه الطريق ..

+ سرت مدة طويلة .. حتى تصل إلى بداية الطريق فحسب !!

كم ستستغرق لتسير الطريق إذن ..

فنظر إليَّ ثم ابتسم بأعصاب هادئة راضية وقال :

= أنا أعلم أنك تسخر مما أقول وهذا مريح ..

أنا لا أريدك أن تأخد الموضوع على محمل الجد

لأنك لن تتقبل ولن تصدق جده ..

+ لا تخيفني عليك ..

= اطمئن .. من الآن فصاعدًا سأكون بأفضل حال ..

لا تقلق عليّ ودعنا من فقرة الدراما هذه ..

+ أأنت بخير حقًا ؟

= بالطبع .. لكن لا أكذب عليك فمعدتي تؤلمني بشدة

+ مما .. أتريد أن نذهب للطبيب ؟

= طبيب !! .. أنا جائع يا رجل .. جااااائع ..

+ جائــع أمممممــم .. أنــت تســتحق أن تــأكل ضربًــا لم تتــذوق مثلــه مــن قبــل

= ههههههههههههههههههه

بعدها بيومين أُغلق هاتفه وذهبت إليه فلم أجده ..

ســألت عنــه الجــيران والأصدقــاء وكل مــن يعرفــه مــن قريــب ومــن بعيــد

لكنــي فشــلت في معرفــة مكانــه، وظــل الحــال كــما هــو عليــه إلى الآن ..»

– هل من الممكن أن يكون سافر إلى المغرب

+ لا أظــن .. هــو لا يعــرف أحــداً هنــاك .. فمنــذ أن عــاد والديــه إلى مــصر

انقطع اتصالهما تدريجيًا بباقي العائلة

- حسنًا .. أشكرك ..

+ أنا من يجب عليه أن يشكركِ..

رجاءً إذا عثرتي على أي جديد فقط أخبريني

- بالتأكيد سأفعل ..

هـل كنـت دخـان لتـذوب في الهـواء وتنتهـي فـلا يُـرى لـك أثـر في الدنيـا .. !!

لابـد أن هنـاك أحـد مـا عـلى وجـه هـذه الأرض يعـرف أيـن أنـت وكيـف حالك

***

ذهبت إلى عنوان منزله..

طرقت الباب كثيرًا وكما هو متوقع لم يفتح أحد

فخرجـت مـن العـمارة وبـدأت أسـأل عنـك أصحـاب الدكاكـين المجـاورة.. مُحَاوِلَـةً أن أغـض الطـرف عـن الفتـاة التـي تتبعنـي بنظرهـا مـن إحـدى النوافـذ منـذ أن دخلـت إلى الشـارع..

لكنـي لم أسـتطع التماسـك فذهبـت إلى بيتهـا لأسـألها لمـا تراقبنـي .. فسـألتني هـي

+ لما تبحثين عنه ؟!

اتركوه وشأنه أرجوكم .. هو لم يؤذي أحدا

كم مرة عليَّ أن أكرر هذه الجملة

- أنا لا أريد شيئاً .. أريد الأطمئنان عليه فقط

+ أنتِ كاذبة .. هيا اذهبي ولا تعودي إلى هنا مرة أخرى

وإيـاكِ وأن تحـاولي البحـث عنـه وإلا لـن أرحمـكِ إن حـدث لـه مكـروه

*ليأتى صوت من داخل بيتها *

= بنيتي .. ماذا يحدث عندك .. من جاءنا

- لا أحد أمي ..

* لتقول بصوت منخفض للغاية *

- أراضية أنتِ الآن .. هيا أغربي عن وجهي

* وتغلق الباب بكل عنف *

ماذا بها هذه؟! .. لما تتحدث هكذا.. ماذا فعلت لها أنا ..

ربـما تظننـي امـرأة أخـرى .. بالتأكيـد تفعل فهذا غـير طبيعي

سـآتى إليهـا غـدًا .. لـن أتـرك الأمـور عـلى سـوء الفهـم هذا

وفي اليوم التالي عرجت إلى بيتها مرة أخرى

طرقت الباب ففتحت لي من جديد

- اسمعيني أنا هنـــ...

لتغلقه للمرة الثانية في وجهي دون مبرر

لم أحتمــل مــا فعلــت وفقــدت السـيطرة عــلى أعصــابي فظللــت أطــرق البــاب بقــوة

وأصرخ قائلــة « إمــا أن تفتحــي وتســمعيني وإمــا ســأظل أطــرق حتــى يــأتي ســكان العــمارة فــأشرح لهــم مــا حــدث .. بالتأكيـد سيسـمعونني هـم»

ففتحت بسرعة

+ اخفـضي صوتـك .. هـل هـذه حرمـة الديـار التـي تعلمتها مــن أهلك

تطرقين بيوت الناس هكذا

- آسفة ..

أنـا حقًـا آسـفة .. لكنكِ من أجبرتنـي أن أقوم بهذا لو سـمـــ..

+ ششـش أنـتِ تتحدثـين كثـيرًا .. كيـف يُفهمونـكِ أنـتِ .. إلى أي فصيلـة مـن الكائنـات تنتمـين

قلت لكِ لا أريد رؤيتكِ .. لا تأتي إلى هنا مرة أخرى

هــل في كلامــي شيء غامــض أم أنــكِ لــن تفهمــي إلا إذا صفعتــك عــلى وجهــك

حسنًا سأفعل

* لتضربني على وجهي بقوة *

نظـرت إليهـا بعينـين متسـعتين وفـم مفتـوح عـلى مصرعيـه غـير مصدقـة مـا فعلـت ..

ماذا !! هل ضربتني على وجهي حقًا ..

ثم تقول بكل هدوء

+ أعتقد أن رسالتي وصلت الآن ..

لما لم تقولي من البداية أنكِ تفهمين عن طريق الصفع

* ثم تتركني عائدة إلى الداخل فأُمسك يدها بقوة *

– لما ..

* فتنظر إليَّ بلامبالاة قائلة *

+ لأنكِ تستحقين

– أنا لست من تعتقدين

+ وأنا لا أعرفكِ حتى أعتقد أنكِ شخص آخر

– لا تعرفيني وتعامليني بتلك الطريقة

+ أجل ..

– لما ..

+ لأنكِ سألتي عن يوسف ..

❋ماذا !!

من أين لكِ أن تعرفين هذا الاسم .. فهذا هو اللقب الذي أعطيته إياه .. حتى هو لا يعرفه .. هذه الصفعة الثانية التي تعطيني إياها لو تعلمين ❋

+ هل ستظلين على هذا الاندهاش كثيرا

اتركِ يدي لأذهب إذن

- مستحيل ..

يجب أن أفهم ماذا يحدث

+ ماذا تقصدين

- من أنتِ بالنسبة إليه وماذا تعرفين عنه

+ يبدو أني سأصفعك من جديد

- أنا لا أمزح

❋لترد صارخة ❋

+ ولا أنا .. حذرتكِ قبلًا ألا تحاولي أن تسألي عنه

- افهمي .. أنا صديقته من ايام الجامعة

+ وما الذي ذكرك به بعد ثلاث سنوات من التخرج

❋ يبدو أنها تعرف عنه أكثر بكثير مما توقعت ❋

– أنا لا أعرف كيف أشرح لك ..

+ عندما تعرفين أخبريني

– توقفي ..

.....

....

أنا أحبه

❋ لتضحك❋

+ كم اقتنعت ..

– يا لكِ من قاسية عديمة الإحساس

+ لن أرد عليكِ

❋ثم تعود إلى بيتها وتغلق الباب ❋

كم أوجعتيني يا فتاة .. يارب ارحم ضعفي وقلة حيلتي

خرجت من العمارة وجلست على الرصيف أبكي كالطفل الصغير .. لا أعلم هل هذا بسبب الصفعة، أم الغيرة، أم استهزائها بحبي الذي هو أغلى ما لديّ..

وبعد خمس دقائق وجدتها أمامي..

+ توقفي عن البكاء هيا وتعالي معي

❋ فقمت وذهبت معها إلى داخل بيتها ❋

+ اجلسي ..

....

ماذا تريدين

– أخبرتكِ قبلًا .. أريد أن أطمئن عليه

+ حسنًا اطمئني ..

– حقًا !!

+ أجل

– سأذهب

+ اجلسي ..

– أنتِ لن تفهميني أبدًا

❊لتتنهد وتقول ❊

+ يبدو أنكِ لن تستسلمي ..

اطمئني هو بخير لكنه ليس بمصر ولا أعرف أين هو

– و ...

+ وماذا ؟! .. أخبرتكِ كل ما أعرف

ليس لديَّ من المعلومات أكثر مما يعرف الآخرون

– من أنتِ

+ أنا أخته

– لكنه ليس لديه أخوه

+ احتسبت نفسي كذلك

– هاتِ ما عندك

+ تغارين عليه ..

– بالطبع لا

فتضحك

+ بالطبع نعم ..

*فصمت وأنا كلي غضب *

+ أنـتِ مخطئـة فيوسـف ليـس هـذا النـوع مـن الرجـال .. أنـا لسـت حبيبتـه كـما تظنـين ..

لكـن لي معـه قصـة خاصـة اختصَارُهـا أني أفديـه بعمـري إن لـزم الأمـر .. كنـت أخـاف أن تكـوني تابعـة لأحـد بشـكل أو بآخـر ؛ لـذا عاملتـك بتلـك الطريقـة فأنـتِ لا تعرفـين كـم الأشـخاص الذيـن أرادوا الوصـول إليـه للفتـك بـه

– ماذا فعل ليحدث له كل هذا

+ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ .. فلا تتعجبي كثيرا

– أريد أن أسألكِ عن أمر ..

+ اسألي

- لما تلقبينه بيوسف .. لما يوسف بالتحديد ؟!

+ مُجـرد لقـب أعطيتـه إيـاه .. لمـا غبتـي كل هـذا الوقـت رغـم أنـكِ تحبينـه ؟!

- مجرد غياب ..

سأذهب الآن .. أعتذر عن كل ما سببت لكِ من ازعاج

❊ ليظهـر صـوت سـعال شـديد فتركـض إلى الغرفـة وأذهب خلفها ❊

+ آسفة يا أمي نسيتُ أن أعطيكي الدواء على الموعد

= لا تخافي أنا بخير .. إنه سعال بسيط .. لا تقلقي

+ شفاكِ الله وعفاكِ

❊ لتعطيها الدواء ونخرج من الغرفة وتغلق الباب ❊

- هل تحتاجين أي مساعدة ؟

+ رغم كل ما فعلت معكِ تريدين مساعدتي

- أنتِ فعلتي هذا بنية جيدة وأنا نسيتُ كل ما حدث

+ أنتِ حقًا تشبهينه ..

❊فابتسمت ❊

+ كنت في البداية أعامله بطريقة سيئة دون سبب يُذكر .. لكنه كلما رآني ابتسم لي ناسيًا كل ما فعلت وعندما علم بمرض أمي كان أول من وقف بجانبي .. فكما ترين أنا وأمي نعيش وحدنا هنا، وكان كلما توفر معه مال قسمه بيني وبينه حتى أني قلت له بنفاذ صبر أبقي معك مالك فأنت يحق لك أن تتزوج كباقي الرجال

فضحك وقال دعكِ من أمر الزواج ولا تقلقي بشأني وإن لم تأخذي المال فسأحضر لكِ الدواء والطعام بنفسي إلى هنا وأتركهم أمام الباب وأذهب .. ما كان لرجل غيره أن يفعل معي بعض ما فعله حتى لو كنت أخته حقا .. هل عرفتي لما أنا على استعداد أن أفديه بروحي إن أمكن .. لأنه أعظم من أن يُوصف

* فظهرت الدموع في عيني وعينها *

– اشتقت إليه .. جدًا

+ سيعود .. أنا واثقة

– أشكركِ بشدة .. لا تقلقي أنا لن أتركك وحدك فأنا إلى جوارك من اليوم فصاعدا وسأتي لزيارتك في كل حين

فتبتسم لي

– سأغادر الآن ..

+ أراكِ على خير

– وأنا أيضًا ..

أعـرف أنـكِ تحبينه رغـم إنـكارك .. وهذا يُمـزق قلبـي ألمًا ..

ربما هو الآخر يحبكِ.. من يدري..

قد تكون تلك الحقيقة..

حتى وإن لم أرغب في تصديقها ..

وبدأت منذ ذلك الحين أذهب إليها وأتفقدها..

محاولة أن أكون سندًا لها .. أن أكون عوضًا عنك..

وسرعـان مـا تطـورت علاقتنـا خـلال ثلاثـة أشـهر فقـط إلى صداقـة قويـة..

فأصبحـت لا أتحـدث بارتيـاح إلا معهـا.. وأودعتنـي كل أسرارهـا

وعرفت لما كنت تتحمل قسوتها وفظاظتها معك

لأنك تعلم أنها تكذب لتبدو قوية

لتحمي نفسها وأمها وكل من أحبت..

وأتت القشة التي قسمت ظهر البعير ..

إنها الشرطة

أتــت في أحــد الأيــام لتأخذهــا .. وعندمــا ســألتهم مــاذا فعلــت أجابــوا

+ تهمة سياسية

- ما هي ؟

+ لا شأن لكِ وابتعدي عن طريقنا وإلا أخذناكِ معها

*لترد هي قائلةً *

= لا تحاولي معهم فالبسطاء هم دومًا كبش الفدا ..

ولا تخافي عليَّ فلا أحد يموت مرتين ..

- سأحاول أن أنقذكِ .. أعدك

= لن تستطيعي .. أوصيكِ بأمي ..

- لا تخافي عليها أبدًا

= ضعيهــا في دار للمســنين إن اســتطاعتي فهــي تحتــاج مــن يكــون بجوارهــا طيلــة الوقــت وأنــتِ لــن تتمكنــي مــن فعــل هــذا ومــري عليهــا كلــما تذكــرتي ولا تخبريهــا بــما حــدث .. وإن ســألت عــلى قــولي لهــا أني ســافرت ولا تعلمــين متــى ســأعود

وإن عــاد يوســف مــرة أخــرى أخبريــه أن يذهــب لزيارتهــا فهــي تحبــه كثــيرا

+ هيا تحركي ..

= أتمنى ألا تنسيني ..

* مع البكاء الشديد *

- أبدًا ..

= أمي ..

- أمك هي أمي ..

*فتركب وتتحرك بها السيارة لتقول بصوت عالي *

- أمي .. وصيتي إليكِ.. أمي

آه .. نسيتُ أن أخبركِ أمرًا .. يوسف هو من طلب مني أن ألقبه بهذا الاسم لأنه يحبه

سأشتاقك يا أجمل صديقة ..

*وتبتسم إليَّ بشدة .. ثم تغيب السيارة عن الأنظار *

- أنا أيضًا سأشتاقك بشدة أيتها القوية

هل سأظل أفقد كل من أحبهم تحت مسمى الظلم للجميع

في اليوم التالي أخذت والدتها لأفضل دار مسنين أعرفها، ووصيتهم أشد التوصية عليها وأخبرتها ما أوصتني به ابنتها

وبحثت عن محامي ليدافع عنها .. لكنها اختفت!!

اختفـت كـما اختفيـت أنـت .. ولم أجـد لهـا أثـرًا في أقسـام الشرطـة

لما أنا ضعيفة هكذا .. لما ... لما .. لما .. لما .. لما

ألعـن ضعفـي في كل مـرة يجعلنـي أشـعر فيهـا مثـل هـذا الشـعور

أني عديمة النفع ..

جلسـت في المنـزل بضـع أيـام لا أفعـل شـيئاً، صامتـة ودائمة الاختبـاء في غرفتي

أنام معظم اليوم ولا أستيقظ إلا لأصلي أو آكل

فقلق أبي عليَّ .. هو اعتاد أن يراني صامدة

+ لـن أتحـدث كثـيرًا سـؤال واحـد فقـط وأجيبينـي .. مـاذا بـكِ ؟

- لا شيء

+ حسـنًا أنـا ذاهـب، ولكـن تذكـري أنـكِ لم تكـذبي عـليَّ مـن قبـل

- أبي

+ ماذا ؟

- أنا حقًا متعبة .

* تنهد وجلس بجانبي *

+ أنـــا أعلـــم أنـــكِ لا تحبـــين أن تخـــوضي في الكثـــير مـــن التفاصيـــل

أعلم أنكِ تريدين نصيحة فقط

- دومًا كنت تفهمني أكثر مما يفعل الجميع

+ لكنـــي قلـــق عليـــكِ .. أريـــد أن أعـــرف مـــاذا ســـلب منـــكِ عزيمتـــك

- صدقني حتى وإن أردت التحدث فشيئًا ما يُسكتُني

+ لا بأس، أفضل ما يمكنكِ فعله الآن هو أن تكملي

- أكمل ماذا ؟

+ الحياة ..

انفضي غبار اليأس عنكِ وعودي كما كنتِ

القوية المغامرة تلك التي لا تُهزم مهما كانت التحديات

ابحثي عن عمل .. أكملي دراستك .. تزوجي وأنجبي

فأنتِ تستحقين أن تكوني سعيدة

- ســأحاول أن أحيــا يــا أبي .. ســأحاول بصــدق لأجلــك .. أعــدك بهــذا ..

لا لا .. لا أعدك بشيء .. سأفعل دون وعود

+ ولما لن تعديني ..

فأجهشت بالبكاء

– لأن كل الوعود كاذبة .. كلها كاذبة

فما وعدت أحدًا إلا وأخلفت ..

لم يعـد بوسـعي سـوى أن أؤلمهـم وأتـألم لهـم أو أن أفقدهـم إلى الأبـد

+ من هم ..

– أحبتي يا أبي ..

+ لكنكِ وفيتي بوعدكِ لي ..

– وكم وعد خنت مقابل هذا الوعد يا أبي

+ ليت بإمكاني أن أعرف ما حدث معكِ لتصلي إلى هذا الحال

* فمســحت الدمــوع عــن وجهــي واصطنعــت ابتســامة تطمئنــه *

– لا تقلق عليَّ .. أنا بخير .. سأكون بخير مادُمتُم بخير

+ لن أصدق هذا حتى أرى بعيني

– سأجعلك ترى ..

***

وفي محاولة أخيرة لاستعادة نفسي ..

ذهبت إلى الجامعة وسألت عن الأوراق المطلوبة لأكمل الماجستير

الذي لم أستطع أن أتمه هناك

ثلاثة أعوام مرت من المؤكد أنه تغير الكثير من الأشياء

لكن التفاصيل الصغيرة كأعمدة الإنارة وتلك المقاعد

التي أحمل بداخلي عنها الكثير والكثير من الذكريات مازالت كما هي

وأيضًا الأساتذة ..

ومن يومها وأنا أتردد على الجامعة لإنهاء الأوراق

واستعدت علاقاتي ببعض أساتذتي القدامى

أخذت أبحث عن عمل لأستطيع أن أدفع تكاليف دار المسنين ..

لكن الأمر لم يكن سهلًا ابتعدت فترة عن الدراسة وأحتاج أن أتذكر الكثير من المعلومات ؛ لذا عدت للاستذكار من أوراقي وكتبي القديمة ..

ولجأت إلى عمل مؤقت حتى تُتاح لي فرصة عمل في مجال دراستي ..

فأصبحت أدرس وأعمل

ينتهي اليوم وأنا مرهقة جدًا

أذهب إلى غرفتي لأستغرق في نوم عميق

لكن تأتي أنت في مخيلتي فيستغرق النوم في نوم عميق

و أظل أنا مستيقظة

لا أهنأ ولا أرتاح ..

***

أنهيت عملي وعدت إلى المنزل في وقت العَشاء

وارتميت على الأريكة أمام التلفاز..

لا أستطيع حتى أن أبدل ملابسي من شدة التعب

وكان أبي يجلس بجانبي يشاهد الأخبار

حتى رأيتك في التلفاز ...

ماذاااااااا !!

مَنْ ؟؟؟؟؟؟؟

يوسف .. أنت حي ...

ماذا تفعل بربك في التلفاز !!

عندها غيّر أبي القناة فصحت فيه بشدة ..

- أعدها

+ ماذا هناك ؟؟ .. ماذا حدث ؟!

* لينظر إليَّ في دهشة بعينين متسعتين *

ليس لديّ الوقت الكافي لأشرح فأخذت منه جهاز التحكم وأحضرت القناة بنفسي

لكني .. لم أجدك ..

أين ذهبت ؟؟!! ..

عد .. أرجوك ..

عد ..

قمت من على الاريكة وجلست في أرضية الحجرة أمام التلفاز

وضعت يدي على الشاشة وظللت أنظر إليها عدة دقائق لا يرتد إليَّ طرف..

لتُنزف الدموع من عيني دون أن أشعر بها ..

سحبني أبي من يدي إلى الغرفة دون أن يسألني عن ما حدث

وطلب مني أن أهدأ وأنام

كيف أهدأ !!! .. كيف أفعل !! .. أتعلم كم انتظرت هذه اللحظة !!

صُعقت عندما رأيتك .. احتجت أن أراك مرة أخرى حتى أتأكد أني لا أتوهم

ظهرت أمامي لثوانٍ معدودة وغبت من جديد

لم أستوعب ما حدث

كانت المفاجأة أكبر من قدرتي على السيطرة عليها

أردت أن يعطيني القدر فرصه لأتأملك

لأطمئن أنك بخير، لكن كل هذا أصبح في عِداد الأماني

و كأن دعوتي أن أراك لوهلة تحققت لتجعلني أدرك أن تلك الوهلة

لا معنى لها ... وأني كاذبة

ليس باستطاعتي أن أكون بعيدة أو أنكر ما أشعر

أنا أريد أن أكون بجانبك لا يكفيني وهلة أو حتى عشر أعوام

أنا أريد أن أقضي الباقي من سنواتي عندك بجانبك ...

كلا ولكن ..

بك ..

لو استطعت أن أتخللك فأستكين بين جانبيك لفعلت توًا

هل باستطاعتي أن أكون قطرة دم تعلق بأغشية قلبك !!

لـو خُـيرت لاخـترت أن أكـون جـزءاً مـن تكوينـك بـكل مـا تحويـه العبـارة مـن معنـى

حتى لا أنفصل عنك

الأمـر لم يعـد يُحتمـل وتلـك الوهلـة أشـعلت بداخـلي شـوق سنو ات

أشعر وكأن نارًا تأكل روحي من شدة لوعتي

حاولت أن أفكر .. وكم كان التفكير صعبًا

فخرجت من الغرفة

+ ماذا أخرجكِ !! .. ألم أخبركِ أن تنامي ؟

– هـل تعـرف أي معلومـات عـن الخـبر الـذي غـيرت أثنـاء عرضـه النـشرة ؟؟

+ لا لم ألاحظه

– تذكر يا أبي .. حاول أن تتذكر أي شيء

+ للأسف لا أتذكر

لكن لما .. ماذا كان في الخبر ؟؟

– لا شيء

+ سأحضر القناة لعل وعسى يقوموا بإعادته

- حسنًا .. فكرة جيدة

وجلست أستمع على أمل أن أصل لشيء يدلني عليك

لكن يظهر خبر آخر ..

«سوريا: مقتل أكثر من مئتي شخص وإصابة سبعة وأربعون جراء قصف جوي اليوم»

وأنا التي ظننت أن الشقاء ولى زمنه .. يبدوا أنه سيبدأ من جديد

عدة موجات من الخوف والصدمات والشوق تضربني ولا أعرف كيف أتفاداها

دومًا تأتي كل الأشياء الموجعة دفعة واحدة

- أريد أن أسافر

*قلتها في شيء من عدم الوعي *

+ إلى أين ؟؟

- سوريا ..

+ ماذا .. ماذا تقولين ؟؟ .. إلى أين تريدين السفر ؟

- أنا كنت هناك ولدي أطفال بحاجه إليَّ .. لا أعلم هل مازالوا أحياءً أم أن هذا الجحيم قضى عليهم وأراحهم من هذه الدنيا

+ كنتِ أين ؟؟ .. و لديكِ ماذا !!!؟؟.. هل تستوعبين ما تقولين ؟!

* أعتقد أنه حان الوقت لأقص عليك الحقيقة *

- سأشرح لك .. ولكن عدني أنك ستسمح لي بالذهاب

+ ليس قبل أن أفهم أولًا

- حسنًا

* أخذت أسرد عليه الأحداث التي مررت بها، وكانت المرة الأولى التي أحكي فيها عن الثلاثة أعوام الماضية .. كانت تنتابه القليل من مشاعر الفخر والقليل من الحزن والقليل من الخوف والكثير من الوجع عليَّ *

- هذا هو ما حدث

+ كيف لم يخطر ببالك أن تخبريني من قبل !!

- لقد قلت لي أنك لا تريد أن تسمع

+ ليس هذا ما قصدت .. أنا فقط حاولت أن أوضح قدر ثقتي الكبير فيكِ

هذا لا يعني أن تخبئي أموراً خطيرة كهذه عنا

- والآن ماذا سأفعل ؟؟

+ بالطبع لن تذهبي لأي مكان

- بعد كل ما قصصت !!

+ أتريدين مني أن أرسلكِ للموت بيدي

- وأطفالي ..

+ هم ليسوا أطفالك

- بـلى هـم أطفـالي .. أنـا رأيتهـم وهـم يكـبرون ورعيتهـم وعلمتهـم وأحببتهـم وكانـوا ينادوننـي ب « أمـي « فكيـف لا يكونـون أطفـالي

ماذا قد تفعل الأم أكثر مما فعلت

+ مهما جادلتِ لن أوافق

- لما يا أبي

+ لأن ذهابـكِ لـن يؤثـر في شيء، مـاذا سـتفعلين عندمـا تذهبـين ؟

هـل سـتنقذينهما أم سـتموتين معهـما ؟؟ أي الاحتمالـين أقـرب برأيـك للحـدوث !!

- أن أنقذهما أو أمت معهما

الأمـر لا يهـم .. مـا يهـم أن لا أظـل سـاكنة أنتظـر حتـى أراهمـا قتـلى

إن كان يجب علينا أن نموت جميعًا فتلك الرصاصة التي ستخترق جسديهما يجب أن تمر بجسدي أولًا .. سأحميهما طالما استطعت الوقوف على قدمي

+ من المفترض أن حديثك هذا يجعلني أطمئن وأقول لكِ هيا اذهبي وأعدي حقائبك !!

- أبي تفهم موقفي .. هما أصبحا أغلى ما أملك ..

+ ووعدك .. هل ستخلفينه !!

ألم تقولي أنكِ لن تفارقيني أبدًا ؟

* هنا المشكلة .. أبي يعرف جيدًا كيف يروض طفلته المشاغبة ..

يعرف بدقة من أين يمكنه إيقافها وكيف *

- لما تفعل بي هذا يا أبي

+ لأني خائف عليكِ .. أنتِ ابنتي ..

- و هما ولداي .. أنا أيضًا خائفة عليهما

+ انتهى النقاش ..

* ويذهب إلى غرفته *

نبضة تلو الأخرى ترجو من الله أن يحفظهم

يا أطفالي ... يا يوسف

يا رب ..

الرحمة

***

أضربت عن الحياة وجلست في غرفتي

لا عمل ولا عائلة ولا جامعة ولا أصدقاء .. لا شيء

تحضر لي أمي الطعام وترجوني أن أجلس وأكل معهم لكنني أرفض

ولا أخرج من البيت إلا لزيارة أمي الثانية ،وإن سألوني أخبرتهم أني ذاهبة للعمل، أو عند صديقة أو أي شيء، ثم أعود لأتقوقع مجددا بالأيام داخل غرفتي

ما أفعل ليس ضغط على أبي كي يتركني أسافر

ما أفعل من شدة ألمي ..

أنا لا أعرف كيف يمكنني أن أمارس طقوس يومي وبداخلي أحمل كرة كبيرة من الأحاسيس التي تحطمني رويدًا رويدًا

لم أفكر في استخدام هذا الأسلوب لأجعله يوافق

ليس هذا ما نويت أبدًا كما يظن هو

ففاض به وقال بصوت عالٍ في غضب جلي

«لن تذهبي لأي مكان .. لا تخرجي ولا تتحدثي معنا

لا تأكلي أو تشربي، اقتلي نفسك في غرفتك

لكنكِ لن تسافري حتى أموت أنا»

سمعت هذا الحديث والصراخ وأكثرت البكاء

منذ أن اعتكفت في غرفتي وأنا لا تنقطع دمعاتي

أبكي وأصلي وفقط ..

أكره ذاك الشعور

أن تكــون مكتــوف الأيــدي أمــام أحبتــك لا تســتطيع أن تحميهــم أو تراهــم حتــى

أدعو لكم كثيرًا وادعُ أن أراكم على خير

كنــت أعــرف أنــه مــن المســتحيل عــليَّ الســفر مــن جديــد متــى عــدت

هل أهرب ؟؟

لن يسامحني أبي مهما فعلت ..

هل أجلس وأنتظر فحسب ..

لن أسامح نفسي مهما فعلت أيضًا ..

أين المخرج من كل هذا

ويظهـر صـوت نغمـة هادئـة .. إنـه ذاك الهاتـف البعيـد عـلى الطاولة

لا أريد التحدث .. لكن ربما أمر طارئ

ذهبت لأحضره

لأجدك أنت

المتصل ...

لم أستوعب ما يحدث للحظات توقفت عن البكاء واندهشت

ظللت دقيقة أتأمل الرقم وأتأكد أن ما أراه حقيقة

أجل ..

هذا أنت يا يوسف

فأجبت فورًا

- السلام عليكم

+ ....

- السلام عليكم ....

+ ....

- ماذا هناك لما لا تجيب ....

+ ....

كيف حالك ؟

* كيـف حـالي ؟! .. مهـما شرحـت لـك لـن تفهـم كيـف حـالي

أنا لم تغمرني السعادة هكذا منذ مدة

ينتابنـي ذاك الشـعور القـوي بالارتيـاح وكأننـي شـخصٌ نائـمٌ عـلى سريـره بعـد أسـبوع مـن العمـل المرهِـق .. هـل تعرفـه !!

هذا ما أشعره الآن لكن إرهاقي ليس إرهاق أسبوع ..

بل إرهاق سنوات يا يوسف .. سنوات ... *

+ أين ذهبتِ ؟

- معك ..

+ ما بال صوتكِ ؟

- لا شيء

+ أريد أن أراكِ .. هل هذا ممكن ؟

- ماذا ؟ .. متى ؟

+ متى أم ماذا ؟ أم تقصدين لماذا ؟

- لا أدري

+ وأنا أيضًا لا أدري

– ....

+ هل بإمكانك أن تقابليني اليوم

– أجل ...

+ حسنًا ألقاكِ بعد ساعة ؟

– أين ؟

+ بالميدان الرئيسي ذاك .. تتذكرينه ؟

– بالطبع

+ حسنًا أراكِ هناك

– حسنًا .. وداعًا

+ ....

وداعًا

مـا كل تلـك الأحـداث المتلاحقـة .. هـل لي ببضـع دقائـق لأفهـم مـا يجـري

يوسف من أين أتيت .. هل حقًا تتذكرني !!

ولما أردت رؤيتي .. ما معنى كل هذا ؟

ارتديت ملابسي ونظرت لذاتي في المِرآة

لست بخير ..

أصبح وجهي يكسوه علامات الزمن رغم صغر سني.. شحوب وضعف يملأني

هل ستعرفني بعد كل تلك الأعوام

أشعر وكأن ملامحي ليست كما كانت

لا أصدق أني سأراك وسأتحدث معك مرة أخرى

لا أعرف هل عليَّ أن أحزن أم أطير فرحًا أم أندهش

هل كان عليَّ القبول، أم كان يجب أن أرفض وبشدة

أنا سعيدة جدًا وموجوعة لأقصى حد

خرجت من غرفتي وأنا أستعد للنزول

لتسألني أمي

+ أين أنتِ ذاهبة في هذا الوقت ؟؟

- لديَّ أمر ما يجب فعله

+ ما هو ؟

- سأخبركِ عندما أعود

* ليدخل أبي إلى النقاش *

+ ومن أعطاكِ حق النزول الآن ؟

- ماذا تعني ؟

+ أعني أنكِ لن تخرجي من المنزل

* صُدمت بشدة *

- لمـا تعاملنـي بتلـك الطريقـة يـا أبي، أمـي أرجـوكِ قـولي شـيئاً، أنـا يجـب أن أخـرج

+ نحـن تمنينـا أن تعـود للعـالم وأخـيرًا فعلـت، فاتركهـا تذهـب الآن واهـدأ

* لم يرد أبي وقام ليدخل غرفته *

+ اذهبـي ولا تتأخـري كثـيرًا السـاعة الآن الثامنـة .. اعتنـي بنفسـك جيـدًا

- حسنًا يا أمي

خرجت من المنزل ولم أستطع منع نفسي من البكاء

لا يا أبي لا تحزن مني .. لا تفقد ثقتك بي ..

لا أحتمـل منـك هـذا .. اجعـل القسـوة تـأتي مـن غـيرك فأنـت أحـن البـشر عـليَّ

حاولت أن أجفف عيوني من أحزانها وذهبت ..

اقتربت من مكان اللقاء وازدادت نبضاتي اشتياقًا

أريد أن أستجمع بك قواي الخائرة

هل حقاً سأراك بعد لحظات

هـذا كان حلـم أحلـم بـه كل يـوم عـلى مـدار ثلاث سـنوات متو اصلة

والآن هو يتحقق

وصلتُ إلى الميدان ...

وأخذت أبحث عن وجهك في جميع المارة

حتـى سـمعتك تنـادي مـن الخلـف لأسـتدير وأنظـر إليك ..

تكاد نظراتي تمتزج بملامحك من شدة رغبتهم في اللقاء

ظللت أنظر إليك عدة دقائق

وكأني أعيد أحياء صورة دُفنت في خلايا الذاكرة

أراك تنظر إليَّ وتبتسم

سبحانك ربي وكأن كل نار بداخلي انطفأت..

ما عدت أريد الحياة وما عليها

لا أريـد سـوى أن أظل أنظـر إليك هكذا مـا دام في عمري بقية

و إن مت الآن صدقًا سأكون سعيدة

كنت أتعطشك والآن فقط ارتويت

ما أجمل النظر إليك بعد كل هذا الشوق

والغريب أنك لم تمنعني وكأنك تعرف ..

ظللت تنظر إليَّ كما كنت أفعل وعلى وجهك ابتسامتك الخافتة

ولكـن أنـا لم أبتسـم حتـى وكأن وجهـي تجمّـد عنـد تلـك اللحظـة

لم تحاول أن تدير وجهك أو أن تتحدث لاستفيق

تركتني أكتفي منك قليلًا لتسألني في دفء

+ كيف حالك ؟

* فانتبهت لما يجري ونظرت في خجل لأسفل*

-االلحمد لله .. أأنت كيف حاالك ؟

+ الحمد لله .. دومًا في أفضل حال بفضل دعواتك

- كيف عرفت أني ادعُ الله لأجلك !!

+ شعرت ..

* لأعـود وأنظـر إليـه مـرة أخـرى فأجده مـازال ينظـر إليَّ *

- أمازالت تتذكرني !! .. أحقًا كانت تصلك دعواتي ؟

+ أجل .. كانت أسرع الرسائل

كانت أسرع من أي وسيله عرفها البشر

- وهل كانت تصلك نبضاتي ...

* ليبتسم في حزن وينظر لأسفل *

+ دعينا نتحدث في أمر آخر ..

* وهل ما كنت أتحدث فيه أمر لا يهم برأيك *

– ....

+ لما سكتي ؟؟

– أسمعك .. أحتاج أن اسمعك

* ليتوقف وينظر إليَّ بابتسامة تكاد تجعلني أسامحه مهما أخطأ في حقي *

+ أنتِ لا تعرفين كيف تفعلين

– أفعل ماذا ؟

+ لا تعرفين كيف تُزيفين مشاعرك كالعادة

– أتتذكر عاداتي؟!

* ليغمض عينيه .. وكأنه يرجو من الله شيء ..

ربما يدعو الله ليستريح من وجع يشعره أو يدعوه ليتماسك

ثم تنهد وأكملنا السير ليجيب بعد صمت طويل *

+ أجل .. مازالت أفعل

– وماذا عن عاداتك أنت ؟

+ أي عادات ؟

– أن تطيل الابتسام .. وأن تطيل النظر وأن تطيل التفكير وأن .....

+ يكفي .. يبدو أني آخذ وقتًا طويلًا في كل شيء

* لأضحك على ما قال ويضحك هو الآخر *

+ ماذا تظنين هل ترين شخصًا آخر، أم هو نفسه ذاك الذي ...

+ ذاك الذي ماذا ؟

+ لا شيء ..

أنتِ أصبحتِ مختلفة !

– حقًا

+ أجل كثيرًا

– كيف ؟

+ وكأنكِ تجرعتِ من مُر الحياة الكثير حتى ضاع حلو مذاقك

فالألم والحزن والإرهاق باديين على وجهك

– ....

+ يبدو أني مُحق

.....

سامحيني

- أنا أعفو عنك دون أن تطلب فلا تقولها ثانيةً

+ لم أقصد أن تسامحيني على قسوة العبارة، بل قصدت أن تسامحيني

لأني لم أكن بجوارك .. فالله قدر أن تواجهي الألم وحدك

في غربه لا أهل فيها ولا خليل ولا رفيق درب ...

- اترك الحديث عني وحدثني عنك .. أين اختفيت ؟؟

لقد حاولت أن أصل إليك منذ مدة لكن بلا جدوى

+ ها أنا هنا ..

- حقًا

+ نعم

❋ فأنظر إليه بغضب مصطنع .. لينظر إليَّ ويبتسم ❋

+ تأخر الوقت أليس كذلك ؟

- ليس كثيرًا .. لما ؟

+ أظن أنه يجب عليكِ العودة الآن

❋ لأتوقف عن السير ويتوقف قلبي ..

لا ... لا أريد أن أودعك الآن لأقول بلهفة ورجاء ❋

- لكن أنت لم تقل لما طلبت رؤيتي ؟ .. لم تخبرني أين كنت ؟ وكيـف عرفـت أني عـدت ؟! .. مـاذا حـدث لـك في تلـك الأعـوام ؟

ألا تريد أن تعرف إن كنت أخلفت وعودي لك أم لا ؟

❋ لينظر إليَّ ❋

+ أنا أعرف أنكِ لم تخلفي أيًّا منها

- كلا ..

❋ لم يعطيني فرصة لأتحدث ..

نظر إليَّ، ثم وضع يده على فمه مشيرًا إليَّ أن أصمت ❋

+ حان وقت العودة للبيت .. ما كان يجب عليَّ أن أفعل لكن تغلبك قوة ما تشعر أحيانًا

- مـا كان يجـب عليـك أن تفعـل مـاذا !! ... أنا لا أفهم شـيئاً

+ لا يهم ..

ها هي سيارة هيا اذهبي وكوني بخير أستودعك الله

- لما تفعل .. أرجوك ......

+ أرجـوكِ أنـا أن تذهبـي ولا تصعبـي عـليَّ الأمـر أكثـر وكـوني بخـير ..

* يقولها والحزن يملئ عينيه والدموع أيضًا .. رؤيته على تلك الحالة جعلتني لا أجد بُداً غير الانصياع له والذهاب *

- حسنًا .. وداعًا ..

كلا .. إلى لقاء

* ليبتسم هو بهدوء *

+ إلى لقاء ..

هل أردت رؤيتك لأرتاح بك أم لأزداد وجعًا

قلقة عليك ولا حيلة لديَّ

أردت أن أخبرك عن الكثير ولم أعرف .. أردت أن أحكي لك عن ما حدث مع صديقتك القوية .. أم أقول صديقتي لكنك لم تمهلني وقتًا

منذ أن تحركت السيارة وأنا شاردة وعادت الأشواق تحتلني أكثر من ذي قبل

بداخلي مليون سؤال ولا أملك وسيلة لمعرفة الإجابة على أي منهم

كنت غريبًا اليوم .. غريبًا في كل شيء

نظراتك والدموع في عينيك

وحديثك الذي لم أفهمه ..

حتـى ظهـورك المفاجـئ بعـد أن فقـدت الأمـل بالعثـور عليـك غريـب هـو الآخـر

ماذا كنت تقصد بقولك سامحيني لأني لم أكن بجوارك ..

لما تعتذر عن هذا الأمر ..

لمـا يُفـترض عليـك أن تكـون بجـواري .. أنـت لم تقـل يومًـا أنك سـتظل بجـواري

أشـعر أن أضعافـاً مضاعفـةً مـن الكلـمات والجمـل تُريـد أن تُقـال وأنـت تمنعهـا

ماذا قصدت بتغلبك قوة ما تشعر أحيانا

ما هي ترجمة هذه العبارات المبهمة

أتعجب أنك تتذكرني ..

لمـا أنـا دونًـا عـن الجميـع تحتفـظ برقـم هاتفـي واتصلـت عـليَّ بعـد كل تلـك السـنوات

هل هذا يعني أنك حقًا ..

تحبـ ...

كلا .. هو فقط أراد الاطمئنان عليكِ من باب الصداقة

لربما حاول من قبل لكنكِ كنتِ في الخارج

هو لا ينسى صديق .. أنا أعرفه ..

وحينها فتحت الهاتف واتصلت بصديقك

+ السلام عليكم ..

- وعليكم السلام ورحمة الله

+ كيف حالك ؟

- بخير الحمد لله .. وأنت ؟

+ الحمد لله

-أردت فقط أن أسألك .. هل عرفت أي جديد ؟

+ للأسف لا .. وماذا عنكِ ؟

- أنا في طريقي إلى البيت بعد أن ر...

* مـاذا تفعلـين .. ليس باسـتطاعتك أن تقولي لـه أنكِ رأيته ..

لما لم تذهب إليه يا يوسف ..

ربما ستذهب إليه الليلة أو غدا .. أو ربما لا تفعل ..

أو ربما ذهبت لكن أوصيته ألا يخبر أحدا ...

على كلٍ لن أخبره .. إن أردت ستفعل أنت بكل تأكيد «

+ آلو ..

- معك .. آسفة ..

كنـت فقـط أقـول أني في الطريـق إلى المنـزل والضوضـاء عالية

سأتصل بك لاحقًا ..

+ حسنًا لا مشكلة ... في أمان الله

- وأنت أيضاً .. السلام عليكم

+ وعليكم السلام

لم تخبره !!!! ..

أيعني هذا أنك أخبرتني وحدي ..

قلت لكِ ربما أخبره وأوصاه ألا يقول ..

لكن لما !!

وصلت إلى البيت ودخلت إلى غرفتي مباشرة

جلست على السرير تاركة الأضواء مشتعلة

عقلي ليس معي .. هو تحت تأثير الصدمة

أشعر كما لو أنني كنت في صحراء

لم أشرب المـاء لأيـام وفجـأة أتيـت لتسـقيني بعـض قطـرات المـاء وتختفـي

ماذا ستفعل تلك القطرات

هل أتيت لتروي ظمأي أم لتزيدني عذاباً !!

أمسكت الهاتف واتصلت بك

«الهاتف المطلوب مغلق أو غير متاح «

ماذا !!!!!!!! .. حسنًا فلتسترخي

سأنسى كل ما حدث اليوم .. سأحاول النوم

فقط لتمر الساعات وأستطيع الاتصال بك غدًا

وغدًا لناظريه قريب ..

***

بعد نوم كاذب أحاول به الهروب استيقظت وضغطت زر الاتصال

« الهاتف المطلوب مغلق «

لا تقولها رجاءً

رميت بالهاتف في غضب

ليعود بعدها كل شيء كما كان وأسوأ

لا حلول لديَّ ولا قدرة على التصرف، لا قوة جسدية ولا عقلية

لا شيء ..

حبيباي .. أخاف أن أتصل بالمشفى فيخبروني ما لا أحتمل سماعه

أيتهـا القويـة لازلـت أحـاول حتـى الآن أن أصـل إليـكِ وأن أنقـذكِ كـما وعـدت

لكني لم أستطع كما قلتِ ..

ويجاور كل هذا أنت وفقداني لك ..

سأحاول أن أنظـر للجانب المـشرق وهو أني أعـرف أنك حي

لكني لا أعرف ماذا حل بهم ..

أشـعر وكأن الدنيـا توقفـت أمـام عينـي ووصلـت لنهايـة الطريـق لا مخـرج

ولا نور ..

وتمضي الأسابيع والأيام .. والساعة تلو الأخرى

ولا إحساس بالحياة

جاهدت أن أقوم بدوري كابنة وأخت

حاولـت أن أعـود لأعتني بعائلتـي لأجد سـبباً ومعنى لأيامي

لأشـعر أني أسـتحق منة الله عليَّ بأن أطال عمـري حتى اليوم

أصبحــت أحبــس آمــالي الصغــيرة وحبــي وأمومتــي في أقــصى أركان الذاكــرة محاطــين بــكل العَــبرات التــي لم أتمكــن مــن بُكائهــا خشــية أن أفقــد بقايــا الفــرح التــي تأتينــي منكــم

ولم أعد أجد معنى لمحاولاتي فاستسلمت لواقعي.

وحييت ..

أخذت أتقرب من أختي الصغيرة

عـدت لأعطيهـا بعـض نصائحـي التـي لا أعمـل بهـا عـن الحـب والتعلـق والدراسـة

وعلمتهـا كيـف تكـون أكثـر قـوة بـالله عـلى كل مشـاعرها وكل تحديـات الدنيـا

وعــادت تقــص عــليَّ كل أحــداث يومهــا وأنــا كلي أذان مصغيــة

أصبحت أرى تلك الصغير سعيدة هذه الأيام وصافية

كأنهــا كانــت ترجــو مــن الله أحــدًا يســتمع لأحاديثهــا الكبــيرة في بعــض الأوقــات

والصغيرة حينًا والرائعة دائمًا

حاولت أن أعيد ترميم علاقتي بأبي

والحمد لله عاد كما كان .. حنوناً وعطوفًا ومتسامحًا

حاولــت أن أعــوض أمــي الثانيــة عــن فقــدان ابنتهــا .. أزورُهــا في الأسـبوع مرتـين وثلاثـة وأجلـس معهـا بالسـاعات والحمــد لله أن حالتهــا لا تســوء

حاولت أن احمل همومهم واخفف من أثقالها

أصبحت أقوم بأعمال المنزل عن أمي وأعتني بأخي الصغير

جاهدت أن أكون صالحة

لكن هناك شيئا ما ليس بموضعه

ربما هذا الشيء أنا ..

الجميع يرى الحزن الدائم على وجهي رغم تظاهري أني بخير

ولا يسألون لأنهم يخشون الإجابة

لأن لا أحد منهم يستطيع أن ينطقها .. لا أحد منهم قادر على أن يقول لي

أنتِ حرة

فلتذهبي ولتقاتلي قدر استطاعتك ولتثأري ولتكوني بجانب صغارك

هم بحاجتي وأنا بحاجة نفسي

أحتاج أن أستعيد أحبتي بجانبي جميعهم

مؤمنة بحدوث معجزةً ما تغير مجرى الأمور

لا يمكن للعمر أن يمضي هكذا فهناك صوت يخبرني

أن قلبي في نهاية المطاف

سيكون سعيدًا

جدًا ..

وإنك ستكون بالقرب وصغاري أيضًا

ذهبت وزرت صديقتي من أيام الجامعة فهي الوحيدة التي تبقت لي وأخبرتها أني قابلتك

+ كاذبة !!

- ولما أكذب ؟؟

+ متى حدث هذا .. ودون أن تخبريني ؟!

- ها أنا أخبرتك الآن

+ لا تجعليني أغضب أكثر

* أخذت أضحك *

- حسنًا أنا أعتذر، ولكني كنت ضائعة الأيام الماضية

وللحق مازلت أشعر بالضياع

أحاول أن أتذكر ما كنت عليه ... لا أعرف كيف كنت هكذا

ولا أعرف كيف يمكنني أن أعود كما كنت

+ أنتِ كما أنتِ .. تخلصي من تلك الأوهام التي لا تزيدك سوى شحوب

- أحاول صدقيني .. أحاول

+ دعكِ من كل هذا الاكتئاب

لابـد أن تحتفـلي يـا فتـاة .. فلقـد رأيتـي حبيبـك أخـيرًا بعـد كل تلـك الأعـوام

أنا لا أصدق أنه مازال حياً .. أنا سعيدة جدًا لأجلك

* لأبتسم بشدة *

- أنـا أيضًـا لا أصـدق أني رأيتـه أمامـي .. رأيتـه يبتسـم .. رأيـت ابتسـامته

رأيت نظراته وعينيه التي تبتلع كل شيء كثقب أسود

* فأخذت تضحك عليَّ وقالت بحماس *

+ أحكي لي كل ما حدث وبأدق التفاصيل

- لم يحـدث شـيئاً كل مـا في الأمـر أني وجدتـه يتصـل وطلب أن نلتقـي فذهبت إليـه و ..

+ قلـت بـأدق التفاصيـل .. مـا السـاعة التـي اتصـل فيهـا .. ومـاذا كنـتِ تفعلـين عندمـا اتصل .. ومـاذا قلتـها .. ومـاذا قلتِ لوالديـكِ ليسـمحوا لـكِ بالنـزول .. مـاذا ارتديتـي ومـا لونـه .. كـم دقيقـة اسـتغرقت السـيارة لتصـل للمـكان .. ومـا المـكان

- هههههههههههههههههههـه .. يـا الله .. لـن أسـلم منـكِ أليـس كذلـك

حسنًا سأحاول أن أدقق أكثر ..

* ورويت لها كل شيء*

+ غريب جدًا ..

- أجل .. جدًا

+ كلا .. لم أقصد ما قلتي .. بل قصدت حبه لك

- حب من .. هو لا يحبني

+ ساذجة حقًا .. فكل ما قصصتي لا ينطق سوى بحقيقة واحدة ..

أنه يعشقك حد الجنون

- لا أعتقد .. ربما هناك ما جعله يتصرف على غير العادة

+ دعك من هذا .. ماذا ستفعلين الآن

- ماذا تقصدين ؟؟

+ هل ستخبريه بِحبك

- ليت بمقدوري

+ ما المانع ؟؟

- منذ أن تركته وأنا أحاول الاتصال به .. لكن هاتفه مغلق

+ وما معنى هذا ؟

– لا أعـرف ... أنـا أريـد مـن يفـسر لي فـما عـدت أفهـم شـيئاً

+ امممممم

– ماذا هناك .. بما تفكرين ؟؟

+ خائفة أن يكون كل هذا

....

صنع خيالك فحسب

– مـــاذااا ؟

+ اسمعيني للنهاية

أقصـد أنـه ربـما مـن شـدة شـوقكِ وتعلقـكِ بـه وعـدم مقدرتـكِ عـلى رؤيتـه

خلـق لـك عقلـكِ هـذا الموقـف وهيـأ لـكِ أنـكِ ترينـه وتتحدثـين معـه

في حين أنه لا يوجد شيئا .. مجرد سراب

وأنتِ لم تتحدثي معه قط ..

– لا يمكـن هـذا أبـدًا أنـا متيقنـة أني رأيتـه وسـمعت صوتـه ونظـرت إليـه وتأملته

لا تقولي هذا ..

أنا سأذهب ..

+ انتظري أرجوكِ أنا لم أقصد إهانتك

أنـا خائفـة عليـكِ فحسـب .. أخاف أن تتشـبثي بأمـل كاذب

- حسنًا لا عليكِ .. أنا أعرف هذا

يجب أن أعود للمنزل سأتحدث إليكِ لاحقًا

* وتركتها مسرعةً ونزلت *

هذا مستحيل .. أليس كذلك ؟؟

لِمَا كان يجب عليكِ قول هذا

أخاف أن تكوني محقة

كلا تلـك مجـرد تخمينـات فحسـب هـل تظـن هـي الأخـرى أني جُننـت

أنا بخير .. وكل ما رأيت وسمعت كان حقيقة

أنت السبب في كل هذا لو لم تختفي مجددًا

يا ليتك لم تظهر منذ البداية

لما عدت ؟!! .. أخبرني لما فعلت

هل تشعر بالفرح عندما تؤلمني أكثر

أو ربـما لم تعـد ربـما كانـت هـي محقـة ربـما أنت محـض سراب وانقشع

فلا أحد غيري كلمك وصديقك لا يعرف عنك شيئًا

كلا لا أصدق

مُنهكة ومتعبه وأحتاج عونك يا الله لأخرج مما أنا فيه

***

تمشيت بضع ساعات كي أهدأ وعدت للمنزل مساءً

فوجدته فارغاً ..

يا ترى أين ذهب الجميع

اتصلـت عـلى هاتـف أبي ولم يـرد فاتصلـت بأمـي ولم تـرد هـي الأخـرى

ربما ذهبوا للتنزه وسيعودون بعد قليل

ذهبت لأبدّل ملابسي فوجدت اتصالاً من أمي

- أمي وأخيراً .. أين أنتم جميعًا ؟

+ نحن في قسم الشرطة التابع للإدارة

أرجوكِ تعالي إلينا ..

* قالتها وهي تبكي فأخذ منها أبي الهاتف وهو يقول « ماذا تفعلين ألم أقل لكِ ألا تتصلي « .. فأجابت « هي الوحيدة القادرة على إنقاذ أختها» *

بعدما قالت كلمة « أختها « لم أنتظر حتى أسمع باقي الحديث، أغلقت الخط وارتديت الحجاب وخرجت من البيت ليس معي سوى بعض النقود والهاتف

وصلت ووجدت أبي ينتظرني أمام بوابة القسم

– ماذا حدث .. ماذا بها أختي ؟

+ لن أتكلم قبل أن تعديني أنكِ لن تقولي حرفًا قبل التفكير فيه مليون مرة

لا أريد خسارتكِ أنتِ الأخرى

– أنت تزيد خوفي أكثر .. تكلم يا أبي

+ أختك تم القبض عليها بتهمة التظاهر

– ماذا !! .. منذ متى وهي تهتم من الأصل بمثل هذه الأمور .. إنها لا تكره أكثر من نشرات الأخبار وبرامج السياسة

أنت تمزح أليس كذلك

+ إنه ما حدث .. كانت ذاهبة للدرس كعادتها مع أصدقائها وتوقفت لتشاهد المظاهرة التي قامت صباح

اليـوم بينـما أكمـل أصدقائهـا الطريـق فأتـت الشرطـة وأخـذت كل مــن وجدتــه

❋ لم أسـتطع أن أتمالـك نفسي مـن الضحـك .. فأخـذت أضحـك ضحـكاً ممزوجـاً بمـرار الكُـره والغضـب والسـخرية وعـدم التصديـق ❋

- يالا السخف ...

❋ فتركـت أبي والغضـب مسيطر عـليَّ، ودخلـت مـن بوابـة القسـم فتبعنـي مهـرولًا وأمسـك يـدي في عنـف ليقـول بصوت عـالٍ ❋

+ ماذا أخبرتكِ في الخارج ؟

❋ وقبـل أن أجيـب أتـى المحامـي وقــال « لــن نســتطيع إخراجهـا اليـوم سـتبقي هنـا فبالطبـع لم يصدق أحـد مـا قالـت، ومثـل تلـك القضايـا يتم فيهـا حجز الأشـخاص على ذمـة التحقيقـات مـدة لا يعلمهـا إلا الله كـما تعلـم « ❋

- أنـا لا أفهـم أي جـرم ارتكبـت فهـي لا تـزال طفلـة لا تفقـه عـن مـا يحـدث حولنـا شيء

سأذهب وأتحدث معهم

❋ فأمسكني أبي ❋

+ لـن تتحدثـي مـع أحـد .. سـتذهبي، ولكـن لتحـضري أمـكِ وأخيـكِ ونعـود للمنـزل

❋ فقلت صارخة ❋

- أبي ..

+ هل سمعتي ما قلت ؟!

❋ ياااااا إلهي ..

أمسـكت غضبـي عنـوة وأخـذت أضرب بيـدي عـرض الحائـط .. كـدت أكـسر عظـام أصابعـي مـن شـدة النـار بداخلي .. كيـف أتـرك أختـي وأذهـب !!

إنها أختي أيها البشر .. أختي يا أبي .. ابنتك ❋

- ستترك فلذة كبدك بالداخل وتذهب للبيت

وتنام في اطمئنان، بينما لا يعلم حالها إلّا الخالق

+ توقفـي عـن مثـل هـذه الجمـل الخانقة وافعـلي ما قلـت لكِ

❋ ذهبتُ وأحضرت أمي وأخي وخرجنا من القسم

تتوهـم يـا أبي إن ظننـت أني سـأمررها بهـذه البسـاطة .. أنـا أعـرف أنـك تفعـل هـذا خوفًـا علينـا .. لكنـي لا أخـاف إن تعلـق الأمـر بكـم ❋

- أنا سأبات هنا الليلة ...

* جلست على أحد المقاعد بجوار القسم *

+ هيا تحركي ولا تجعلي الدم بداخلي يفور أكثر

فلقد رأيت ما يكفي الليلة

- أنــا لــن أذهــب ولــن أقــوم مــن عــلى هــذا المقعــد إلا وأختــي معــي ..

* فأجاب في غضب *

+ كــما تشــائين .. هيــا بنــا نحــن فلــم يعــد بداخــلي صــبر لتلــك التصرفــات الصبيانيــة

* قالها بلهجة صارمة لأمي وأخي الواقفان بجانبي *

+ قلت هيا

وذهبــوا جميعًــا بينــما مكثــت أنــا هنــاك طــوال الليــل عــلى المقعــد ونمــت وأنــا أســتند عــلى عمــود الإنــارة حتــى أيقظتنــي أصــوات الســيارات في السادســة صباحًــا

مكثت في مكاني لا أفكار لديَّ .. هل أدخل وأتشاجر

ســيتم رمــيِّ أنــا الأخــرى في الحجــز ولــن أســتطيع مســاعدة أختــي وســأزيد الأمــور تعقيــدًا

حسنا سأدخل وأتحدث بلطف ..

على من أكذب .. لن أفعل

كل ما دار في رأسي لا يصلح أن يكون حلًا عقلانيًا سليمًا

اتصلت بأحد أساتذتي الجامعيين ورويت له ما حدث وأخبرني أنه سيحاول مساعدتي

ربما تكون تلك الفكرة حلاً جيداً .. ليس بالنسبة لي، على أي حال لا خيارات أخرى فلن أتركك تضعين كما ضاعت مني أختي الأخرى

وعدت بعدها إلى المنزل

بداخلي ألم

ذاك الألم الناجم عن الغضب الذي احتبسته

الغضب الذي لم يستطع أن يخرج ليقضي على الجميع فقضى عليَّ أنا

كم كنت أريد أن أدافع عنكِ بشرف وأقول إنكِ بريئة لأنكِ حقًا بريئة

حتى وإن كنتِ تظاهرتي فأنتي ستظلين بريئة

لكن هذا لن ينقذك، فما عاد يصلح الآن غير تلك السُبل الملتوية الخسيسة

خمن ماذا ..

خرجت أختي في اليوم التالي مع اعتذار شديد من الضباط لها ولعائلتي على مثل هذا الخطأ الفادح الذي ما

كان ليبـدو أنـه خطـأ إلا إذا جاءتهـم أوامـر عليـا بذلـك

أبي وأمي سعداء ..

وأنا منكسرة ..

ياليتهـم أخـذوني أنـا .. لكنـت فضلـت حريـة السـجن عـلى ذل الواقـع

في اليوم التالي وبعد عودتي من العمل

تناولنا العشاء وذهبت إلى الغرفة فأتت أختي إلى

+ حزينة أني خرجت !

– ما هذا الذي تقولين .. بالطبع لا

+ لما لم أرَ فرحتك بعودتي إذن وأنتِ السبب في خروجي

– أنا حزينة من نفسي يا أختاه

+ أحزينة لأنكِ أطلقتي سراحي !!

أختي أنتِ لا تعرفين كم كنت خائفة ..

مكان مظلم مليء بالحشرات مياه قذرة وطعام أقذر

هـل تريديـن منـي أن أعـود لهـم، حسـنا سـأفعل وليدخلـوني هنـاك مـرة أخـرى وأنـا بريئـة إن كان هـذا سـيجعلك سـعيدة مـن جديـد

* فاحتضنتها وهي تبكي وقلت *

- توقفي أرجوكِ وإلا سأبكي أنا الأخرى

أنـتِ لا تدركـين كـم خسـارتي التـي اختارتهـا لأجـل أن تفـوزي أنـتِ

* أمسكت بكتفيها ونظرت إلى عينيها المليئة بالدموع *

يا أختي ..

هناك في نفوسنا .. حيث تسكن العقائد

مبـادئ تهيمـن علينـا وتتملـك منـا .. لا نعـرف كيـف نتخطاهـا حتـى ولـو كان لأجـل عزيـز

حتى ولو كان لأجل أنفسنا

تلك المبادئ لا يكون التخلي عنها إلا موتًا لنا ..

و أنا أشعر بأني مت .. ألا يحق لي أن أحزن علي قليلًا ؟

أنـا أحبـك .. أحبـك بالقـدر الـذي جعلنـي أضحـي بي لأجلـك

لأجل أن تكوني بخير ..

* فقامت بضمي مرة أخرى *

+ وأنـا أيضًـا أحبـك جـدًا يـا أعظـم أخـت في هـذا الوجود .

قضينـا تلـك الليلـة معًـا في غرفتـي نتحـدث ونمـزح ونرقـص أيضًـا

ونامت معي بين أحضاني يومها في سلام

لو لم يكن الأمر يمسكم ..

لـو كان يمسـني أنـا .. لكنـت فجـرت براكـين تحـرق الظلـم والظالمـين في كل هـذا العـالم دون أن أبـالي لأحـد أو لـشيء

لكن لحظة الثأر خاصتي

مازالت على قائمة الانتظار ...

***

بدأت الامور تستقر داخل العائلة بعد تلك الحادثة

بدأ كل شيء يعود لطبيعته

نزل أبي لصلاة الجمعة ثم عاد وأحضر معه الفطور

ذهبت وأعددته لهم وجلسنا نتناوله سويًا

أظـن أني كنـت أحتـاج لمثـل هـذا القسـط مـن الراحـة ليهـدأ قلبـي وفكـري

تناولنا المشروبات الساخنة كلٌ كما يُفضل

وتكلمنا في كل أمور الحياة .. ضحكنا وحزنا..

ناقشنا مشاكل البلاد ومشاكل الجيران أيضًا ..

كم نهوى حل المشكلات

ثـم أخذنـا نخطـط للخـروج في أي مـكان بعد صـلاة العصر

ومن بعدها ذهبت أمي لتأخذ قيلولة

و ذهبت أنا لغرفتي

جلست أقرأ القرآن حتى صادفت

«فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ

قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ «

كلا إن معي ربي سيهدين

لا أعلم ماذا سيحدث لكن الله معي

في ظل كل هذا الخوف والشوق والأمل

كل الدلائـل تقـول لا .. بينـما الله لا يعجـزه مسـتحيل .. وسـتنقلب الأمـور رأسًـا عـلى عقـب

كلا إن معي ربي سيهدين

الله هنا .. وهذا أكثر من كافٍ ليجعلني أفضل ..

سأرتاح قليلًا

دق باب المنزل ثم انفتح وانغلق بعد خمس دقائق

ربما أحد الجيران

ثم طرق أبي باب غرفتي

- تفضل

+ هذا لكِ ..

- ما هذا .. ظرف !! .. مَنْ أحضره ؟

+ البريد .. دعوة لحضور احتفال للسلام

- احتفال للسلام !!

أي كذب هذا وهل هناك سلام !

+ أنـا لا أعـرف شيء وحاولـت أن أفهـم مـن الرجـل، لكنـه لا يعـرف أيضًـا

الحـل هـو أن تفتحـي هـذا الظـرف وتقـرأي مـا بداخلـه لنفهـم كلنـا مـاذا يجـري

- حسنًا ..

الآن ؟!!

+ أجـل الآن بالطبـع، ألا تريديـن منـي أن أعـرف مـاذا يحـوي ؟!!

- كلا ولكن ربما شيء لا يسرك

+ لا تقلقي سأتقبل ما بداخله أيًّا كان

أنظـر إليـه في حـيرة وقلـق، ثـم أفتـح الظـرف ولكـن مـا هـذا الجـمال

لم أرَ من قبل طرد بهذه الروعة رسالة مغلفة بأبهى هيئة

وكل ما هو مكتوب خارجها باللغة الإنجليزية

أبهرتني وجعلتني قلقة بشدة ..

يبدو أن الأمر في غاية الأهمية ليكون الطرد بهذا الشكل

لـديَّ فضـول لمعرفـة كيـف يأتينـي أنـا مثـل ذاك الطـرد !! ومـاذا يحـوي ؟!

يبدو أنه اختلط عليه الأمر بالتأكيد ..

أعدته إلى مكانه في الظرف وأعدت تغليفه

+ ماذا تفعلين ؟

- لا يجب عليَّ أن أقرأه فهو ليس لي

+ مـا الـذي تقولينـه ! افتحيـه هيـا ودعينـا نعـرف مـاذا تحمـل الدعـوة داخلـه

- أبي هذا الطرد مؤكداً ليس لي صدقني

لما قد يأتيني أنا طرد مثل هذا

أنـت تقـول دعـوة لاحتفـال سـلام عالمـي .. عالمـي أي أنـه سـيحضرهُ رؤسـاء دول،

من أنا في هذا العالم لتأتيني مثل تلك الدعوة !!

أنـا لسـت برئيـس ولا وزيـر ولا سـفير ولا موظـف مهـم، حتـى أنـا مجـرد مواطنـة بسيطة فبالتأكيـد هنـاك خطـأ مـا

+ لديَّ اقتراح

في بدايـة الرسـالة يُكتـب اسـم المرسـل إليـه افتحـي الرسـالة واقـرأي الاسـم فقط

وإن لم تكـن لـكِ أغلقيهـا ولنعيدهـا إلى البريـد ونخبرهـم إلى مـن يجـب أن تذهـب

- أظن أن هذا هو الأفضل

* فتحـت الظرف مـن جديد وأخرجـت الرسـالة المزخرفة *

- أبي ترى كم هي جميلة !

+ انظري !!

* ليشير بيده إلى الرسالة *

- كلا يا إلهي .. إنه اسمي !!

ماذا يحدث

+ اقرأيها هيا وأخبريني ماذا تعني بالعربية ؟

- « ندعـو سـيادتكم لحضـور الاحتفـال العالمـي للسـلام في أول أيـام الأسـبوع الثالـث مـن الشـهر القـادم والـذي سـيقام

علـى مـدار يومـين في حضـور رؤسـاء الـدول المنظمـة والعديـد مـن الـوزراء والشـخصيات المؤثـرة

نرجـو مـن سـيادتكم التأكيـد عـلى الدعـوة ليتـم حجـز غرفـة الفنـدق وتذاكـر الطائـرة وإخطاركـم بموعـد السـفر .. يُرجـي إرسـال الرسـالة التأكيديـة عـلى هـذا الإيميـل

ولكم جزيل الشكر»

- ولكن كيف هذا ؟؟ ولما أنا ؟

* وأصمت عن الحديث فجأة مُحدِّقةً في الرسالة *

+ ماذا هناك أيضًا

- ....

+ لا تصمتي هكذا .. قولي ماذا قرأتي

- ....

أبي ذاك الاحتفال

سينعقد في ...

إسرائيل

....

لا أعلم كيف ولما تم اختياري لحضور مثل هذا الحفل

لكن إن ذهبت فسيكون من أجل هدف واحد

أن أريهـم كـم تعـاني أوطاننـا، وكـم هـم في نعيمهـم يتمرغـون،

ذكرتني تلك الدعوة بكل الأحداث التي مررت بها

وتذكـرت كـم الأطفـال والنسـاء والشـيوخ والرجـال الذيـن رأيتهـم يموتـون أمـام عينـي ودموعهـم وصرخاتهـم ودعواتهم

وأطفالي وضحكاتهم

ودمائهم ..

والغـدر والانكسـار وضحايـا الجـبروت والـصراع عـلى السـلطة

والفرح الذي غاب وانتهى

وأرواح الأمهـات والأبـاء التـي كانـت تغادرهـم بغيـاب فلـذات أكبادهـم عـن الحيـاة

كنـت أعيـش معهـم الألم بـكل تفاصيلـه وأحياه بـكل معانيه

كنت منهم ومعهم ولا حول لي ولا قوة

لكن الآن أصبح بيدي سلاح وعليَّ أن أعرف كيف أستخدمه

سآتي إليكم لكي أريكم حقيقة أنكم لستم زعماء هذا العالم

بـل زعـماءه الحقيقيـون هـم أولئـك الذيـن لديهـم مـن القـوة والإيمان

ما يجعلهم يتحملون كل هذا ولم ينطفئ بهم الأمل

أولئك الذين حاربوا ويحاربون وسيحاربون دومًا

في سبيل أن يعود السلام إلينا

أن يجد بين أوطاننا ملجأ يسكن به بعد كل هذا الغياب

نحن زعماء هذا العالم

ليس أنتم

ولن تكونوا هكذا مهما محوتم من تراث وقتلتم ودمرتم وعذبتم ..

فالحق حقًا مهما تشوهت معالمه

وكل ما تفعلوه ليس سوى خوف يتملككم من أن يظهر الحق

بأنكم ومهما بلغتم من مجدٍ لازلتم عبيدنا

ونحن مهما بلغ بنا الذل لا زلنا أسيادكم

يُقال ارحموا عزيز قومٍ ذل، لكنكم لا ترحمون ولا تستحقون الرحمة

لكن ..

كيف سأقنع أبي برغبتي في الذهاب وقبول الدعوة

لن يوافق أبدًا

فمنـذ أن عـرف أيـن سـيقام الاحتفـال لم ينطـق بكلمـة وخـرج مـن الغرفـة .. أظـن أنـه يفكـر كيـف سـيوقفني هـذه المـرة دون أن أحـزن وأغلـق عـليَّ ذاتي غرفتـي وانعـزل

لما دومًا أشعر أني أحملكما ما لا طاقة لكما به

أبي .. أمي

كنـت متهـورة ومتمـردة ومازلـت ولكـن تلـك المـرة لـن أتمـرد عليكـما

كيفـما سـيكون قراركـما سـأتقبله رغـم رغبتـي الملحـة في الذهـاب

رغـم قـوة اللهيـب المشـتعل في صـدري الـذي أريـد أن أحرقهـم بـه

رغـم أنهـا قـد تكـون فرصتـي الوحيـدة لأثـور ويسـمعني العـالم

سـأخضع لمـا سـتقولان وسـأحاول أن أتـم سـنوات عمـري كإنسـانة عاديـة

فقط لكي لا أخيفكما عليَّ من جديد وأجعلكما تعانيان بسببي

فيكفي ما فعلته بكما الأعوام السابقة

خرجـت مـن غرفتـي فوجـدت أبي جالسًـا في غرفـة المعيشـة يشـاهد التلفـاز

وكأن شيئًا لم يكن

ذهبـت بخُطـى بطيئـة وجلسـت بجانبـه لأخـبره أني لـن أذهـب لأي مـكان

وألا يقلـق عـليَّ فسـأظل معـه كـما وعـدت فـلا شيء أهـم لـديَّ مِـن رضـــــ .....

+ اذهبي

- أنت الذي تقولها !!

+ أجل أنا

- ألست خائفاً عليَّ ؟

+ وأموت

- إذن لن أذهب لأي مكان

+ ولكني أريدك أن تفعلي

- هل تظن أن أحدًا سيهتم أو يبالي ..

فقـط عربيـة متمـردة أرادت أن تقـص عليهـم أمـورًا هـم يعرفونهـا جيـدًا ؛ لأنهـم هـم مـن فعلوهـا

+ لا يهـم .. أنـا أعلـم شـيئًا واحـدًا أنـكِ سـتفعلين كل جهـدك لتصلحـي

- تثق فيَّ كثيرًا يا أبي

+ لأنكِ لم تكسري تلك الثقة ..

لا تعلمـين كـم الفخـر الـذي انتابنـي وأنـتِ تقصـين علـيَّ مـا مـررتي بـه في الأعـوام الماضيـه .. شـعرت حينهـا أني أنجبـتُ بطـلًا ليـس مجـرد فتـاة

بطلًا قادراً على أن يغير العالم

خـذي موافقتـي هـذه يـا بنيتـي كتعبـيرًا عـن أسـفي لمـا فعلتـه معـكِ الأشـهر السـابقة ..

علمتـك أنـه إذا كان هنـاك اختيـار فاختـاري طريقًا تسـلكينه إلى الله

وعاقبتك على ما علمتك إياه

أنـتِ كنتـي محقـة في كل شيء لكـن خـوفي عليـكِ كان يعميني عـن رؤية الحـق ...

* ابتسم لي فدمعت عيناي من الفرح *

- ....

لن تندم أبدًا على تلك الثقة .

ركضت إلى غرفتي وجلست على الحاسوب

من سعادتي أرسلت إليهم إيميل التأكيد في ثوان

فوصلنـــي الـــرد بأنـــه تـــم تأكيـــد ذهـــابي، وســـتصلني كل المعلومـــات خـــلال ســـاعة

يوسف ...

قلت لي «أنا أعرف أنكِ لم تخلفي أيًّا منها»

لا أعلـم هـذا لأنـك وثقـت بي أم لتجعلنـي أذهـب حينهـا فحســب

لكن الآن أستطيع أن أخبرك أن وعودي على مشارف التحقق

سأفعل ما تمنيت فعله

سـأترك الأثـر ولـن تـرى الحـزن والأوجـاع عـلى وجهـي بعـد ذلـك

سترى فقط شخصًا لطالما حارب

وفي نهاية المطاف بعد الكثير من الهزائم

انتصر ..

تلــك الدعــوة كيفــما كان ســبب وصولهــا هــي هبــة الله ليعطينـــي فرصـــة جديـــدة

لأكون سبباً في الإصلاح

يجب أن أتحدث في هذا الاحتفال

يجب أن أفعل ..

تلـك الفتـاة البسـيطة لـن تكتفـي بـما ظننتـم أنكـم مننتـم عليهـا بـه

أن تكون موجودة في حضرة رؤساء أكبر دول

فأولئك العظماء في نظركم لا يعنون لها شيئًا

فهي ستتحدث كما سيفعلون

هـم فقـط سـيقولون حديثـاً مزخرفـاً بينـما سـتقول هـي الحقيقـة فحسـب

إنه قد مات السلام ..

وأنكم القاتلون

***

مكثت أفكر طويلًا ..

في ما سأفعل وكيف سأجعل حديثي يؤثر بهم

لم تؤثـر بهـم بحـور الدمـاء التـي أُريقـت فكيـف لبضـع كلـمات أن تفعـل

الطفلين ..

يجب أن آخذ الطفلين معي

أجل .. تلك الفكرة عظيمة بحق

ها قد وجدت الحجة لآتي لكما من جديد

لاحميكما .. لأجعل الجميع يسمع ويرى آلامكما

لكن أمامي عقبتان لأفعل ..

الدعـــوة موجهـــة إليَّ وحـــدي فكيـــف ســـآخذ الطفلـــين بصحبتـــي

والأمـــر الآخـــر أنـــه بالتأكيـــد لـــن أكـــون مِمـــن ســـيتكرمون عليهـــم بالتحـــدث

فيجب أن أبحث عن طريقة تجعلني منهم

ســـأطلب العـــون مـــن المنظمـــة .. لربـــما أجـــد لديهـــم حلـــولاً لـــكل هـــذا

ذهبـــت في اليـــوم التـــالي إلى المنظمـــة الســـورية التـــي كنـــت أعمـــل معهـــا

قصصت عليهم الأمر ..

الجميـــع كانـــوا في اســـتغراب .. قـــرأت الخـــوف والاتهـــام في أعينهـــم

ينظرون إليَّ وكأني عميل خائن

- لا تنظروا إليَّ هكذا بربكم

هـــل هنـــاك عميـــل ســـيأتي ليطلـــب منكـــم العـــون في احتفـــال هـــو ذاهـــب إليـــه بالفعـــل، لمـــا قـــد أفعـــل أمـــرًا كهـــذا ؟! لـــو كنـــت أعمـــل معهـــم لمـــا آتـــى إليكـــم ؟!

كنـت سـأخذ الأطفـال وأذهـب بأبسـط مـا يمكـن تصـوره، ولـن يسـتطيع أحـد منعـي

فكـروا أرجوكـم إن كنـت عميـلاً لديهـم لكانـت معـي كل الحلـول

* لترد إحدى الفتيات *

+ أنـا أعتقـد أن الوثـوق بهـا ليـس بهـين .. يسـهل عليهـا إقناعكـم بـما تريـد والتلاعـب بالـكلام .. يجـب أن نفكـر في الأطفـال أكثـر .. هـل سـنلقيهم في النـار بإرادتنـا التامـة ؟

- وهل وجودهم في بلدهم الآن آمِن !! ..

أجيبيني

هم في قلب عرين الأسد بالفعل إن لم يكونوا في فمه ...

أنتِ لن تخافي على هذان الطفلان أكثر مني

لن تخافي عليهم ولن تفكري في حمايتهم مثلما أفعل أنا

* قلتها وأنا أصرخ فيها فنظروا إلي باندهاش كبير

يجـب عـليَّ أن أتمالـك نفـسي قليـلًا إن كنـت أريـد الفـوز بمسـاعدتهم

أخـذت نفسًـا عميقًـا لعـلي أهـدأ وأتمكـن مـن التفكـير فيـما سـأقول، ثـم استرسـلت قائلـةً *

+ ألا تعرفين أن النار تلك هي أكثر الأماكن أمنا وهذه حقيقة مؤسفة بشدة

كما كانت النار على سيدنا إبراهيم هكذا ستكون النار عليهما

إسرائيل هي مهد السلام الآن وأكثر البلدان أمانًا

وكم هو صعب عليَّ قول هذا ،كما هو صعب عليكم سماعه

لكن الخوف على الطفلين ليس وهم، هناك الخوف الحقيقي هو في طريقهم إلى هناك .. أنا أتمنى أن تتفهموا موقفي

هذان الطفلان أنا احتضنتهم ورأيتهم وهم يكبرون وشاركتهم المعاناة وكنت لهم أمًّا، تلك الفرصة أنا لا أريدها لي ولا أريد منها أي مكسب

فقط أريد أن أعبر عن نيراننا أو بصدق أكبر عن ألم هذين الطفلين

فهم يعنون لي أكثر من أي شيء في هذا الكون

* فيقول أحدهم *

+ هل نجازف بالطفلين وبك في سبيل ألقاء بعض الكلمات

فلطالما تحدثنا ولم يتغير شيء

– أنـت محـق لكـن هـذه فرصـة أتتنـي دون طلـب أي أنهـا إشـارة مـن القـدر فمـن يـدري مـاذا سـيحدث .. سـأحاول مـرة بعـد

+ أخطأتي .. لم تقيسي الأمور بطريقة صحيحة

الخسـائر إذا مـا قُورنـت بالمكاسـب سنسـتنتج أن الخسـائر أكـبر بكثـير

لافترض معكِ أنكِ ذهبتِ وأخذتي الطفلين

وصارت الأمور على نحو جيد

وقلتي ما يزعجهم

فقـط سـينتظرون أن تخرجـي مـن هنـاك ولـن نجـد لـكِ أنتِ والطفلـين أي أثـر بعـد هـذا اليـوم فسـواء نجحـت الكلمـة أم لا ... لا أظـن أنكـم سـتنجون

الخسائر ثلاث ضحايا في كل الأحوال والمكاسب لا شيء

أتسمعين

لا

شيء ..

لا أقصد أن أقتل الأمل بكِ، لكن الأمور لا تُرى هكذا

لا تفرحـين كثـيرًا بالفـرص فعـادة تكـون الفـرص مميتـة ومغلفـة بطبقـه مـن الفضـة لتنبهـري بهـا فحسـب ثـم تذهبـين إليهـا فتنهيـكِ

*أخذت أنظر إليهم جميعًا ولا رد عندي على حديثهم

هـم محقـون في كل مـا قالـوا إن وافقـت أنـا عـلى التضحيـة بـذاتي في سـبيل الذهـاب

فما ذنب الطفلين معي

لكن مازال عندي إصرار وأمل لا أعلم لهما مصدر .. *

= أنا أظن أنه يجب أن نعطيها فرصة ....

* قالها أحد الأشخاص الذي دخل منذ بداية الحديث

لكنـي لم أسـتطع رؤيـة وجهـه؛ لأنـه كان يبحـث في أوراق ولم يلتفــت إلينا *

– مَنْ ؟

* فيستدير لنا *

– لا أصدق .. أنت !!

* كان صديقـي الـذي أعطـاني الظـرف لأوصلـه للمنظمـة بعـد ترحيـلي *

= تتذكريني إذن ؟

- بالطبع افعل يا صديق

❊ فيبتسم لي ويدخل المناقشة ❊

= حسنًا سأخبركم شيئًا واحدًا تلك الفتاة ليست مثلنا

هـي لا تفقـد الأمـل قـط، لا تعـرف مـا معنـى أن تيـأس ، هـي بحـق لا تفهـم هـذا

أنـا لا أقـول هـذه الكلـمات لأمدحهـا، لكـن تلـك هـي الحقيقـة

أتعرفون الأطفال هي تشبههم

أولئـك الذيـن لطالمـا سـقطوا، مازالـوا يحاولـون النهـوض ليتعلمـوا السـير

هي هكذا .. لا تعرف ماذا تعني كلمه مستحيل

ثقوا بها هي تعرف كيف تغير مسار الأمور

❊ ويقول الآخر ❊

+ أنا أراعي آمالكم الكبيرة وأحلامكم بوضع أفضل

لكنكـم لا تـرون الحقيقـة تلـك الآمـال كاذبـة عـادة لا تُـرى الأمـور هكـذا

نحـن نحيـا عـلى أرض الواقـع، الأحـلام والآمـال والطموحـات كلهـا أشـياء رائعـة

لكن لا معنى لها .. يجب علينا التفكير في كل الاحتمالات

= وأنا أريد أن أخبرك أن الواقع لا يُرى هكذا أيضًا يا صاح الأبطال حقيقيون ليسوا خيالاً فحسب ..

أظنك فهمت ما أعني

+ حسنًا كما ترغبون ..

لكن إذا حدث لهم مكروه تذكروا أني حذرت

= أنا سأساعدها وإذا نجحت أيضًا تذكروا أني أخبرتكم أنها ستفعل

- أنا أظن أنه يجب علينا التفكير مرة بعد

و .....

= لا ترددي أرجوكِ .. أنتِ على الصواب أكملي .

- ليس تردد لكنه محق في ما قال هل على أن أضحي بالأطفال من أجل بضعة كلمات قد لا تغير من الأمور قدر أنملة

الخسائر الأطفال والمكاسب لا شيء ..

أنا أقدر ثقتك لكن أظن أني لم أنظر للأمور بطريقة صحيحة

= سأفكر معكِ بمنطقية وسأنتهي بأنكِ محقة

لأثبت لكي أن المنطق قد يحتمل نظرة إيجابيه وأخرى سلبية

المنطق ليس مجردًا من الأهواء وتُؤثر عليه شخصية المتحدث

وكيفية نظرته للأمور

أنا الآن واقعي .. إذا ذهبتِ أنتِ إلى هناك ومعكِ الدعوة وفقط كونك مدعوة هذه نقطة لصالحك أي أنكِ شخص مهم .. لا أعرف لما وماذا حقًا فعلتي

لكنهم يرونكِ شخص مؤثرًا هذا ادعي أن لا يفكروا بتصفيتك

خوفًا من الهجوم عليهم من قبل حقوق الإنسان

ثانيًا هذا الاحتفال تعرف عنه الكثير من الدول، هناك أشخاصًا كل ما يشغلهم الآن هو معرفة آخر تطورات الحدث، هذا يعني أن وجودك هناك والأطفال

سوف يعرف عنه الكثير وإذا تحدثتي خلال الاحتفال حقًا واستطعتي هذا

فلن ينتهي الاحتفال إلا وعرف كل وكالات الأنباء بالأمر

وإذا قُتِلتم وهذا لن يحدث

سـوف تُذيـع كل نـشرات الأخبـار بالكثـير مــن اللغــات عــن مــا حــدث

«مـن غرائـب وطرائـف هـذا العـام .. قتـل ثلاثـة أبريـاء بعـد احتفـال السـلام !!»

ولن تثور الدول العربية فقط بل العالم أجمع

وإسرائيل أذكى من أن تفعل ذلك

وإذا فرضنـا أنهـم قتلوكـم في الخفـاء لـن يسـكت ذويكـم وسـيخبروا الجميـع عـن اختفائكـم في النهايـة سـوف ينتـشر خـبر قتلكـم عاجـلًا أم آجـلًا

وإسرائيل أجبن من أن تجعل الجميع غاضب عليها

لذا أنتم لستم بخطر يُذكر

هل اقتنعتِ الآن ؟

- ....

* وصمت الجميع *

= فيما تفكرين ؟

- في ما قلت

= وما نتيجة التفكير

- أظن أنك مُحق

= أنـا أعـرف أنـكِ لا ترغبـين بالشـهرة، أو أي شيء مـن هـذا القبيـل

وأعـرف أنـكِ لديـكِ أمـل كبـير في أن تكـوني ولـو حرفـاً صغـيرًا في سـطور الأيـام الجميلـة القادمـة التـي سـنحياها بعـد انتهـاء كل النزاعـات

وأنـا مجنـون مثلـك وأصـدق هـذا الأمـل المعـدوم لـدى البقيـة ؛ لـذا سأسـاعدك لفعـل أي شيء حتـى لـو كان يبـدو لا معنـى لـه ولـو استصغره البعـض فالأشـياء التـي تقلـب الأمـور رأسًـا عـلى عقـب دومًـا كانـت أصغرهـا ...

كم يوم لدينا ؟!

- الاحتفـال في بدايـة الأسـبوع الثالـث مـن الشـهر المقبـل، ويجـب عـليَّ أن أكـون هنـاك قبلـه بيـوم عـلى أقـل تقديـر، أي أنـه معنـا فقـط ثلاثـة أسـابيع

= حسـنًا .. عليـكِ السـفر اليـوم أو غـدًا وإحضـار الأطفال، ومـن ثم

سـندخلك بهـم إلى فلسـطين وسـتمكثون هنـاك لحـين الموعد المذكور

سـأرافقك في هـذه الرحلـة لا تقلقـي .. والبقيـه سـيأتون خلفنـا

اذهبي الآن واستعدي للسفر وعودي إلى هنا مرة أخرى

ونحن سنبدأ في ترتيب كل شيء

- حسنًا .. وفقكم الله

لا أعرف كيف أشكرك على مساعدتك لي

سأكون معكم في أقرب وقت

= سننتظرك

تركتهم وذهبت في عجلة حتى أبدأ في جمع حقائبي وأوراقي

وعندما وصلت للمنزل رويت على أبي ما حدث

اطمئن أكثر عندما عرف أنهم سيكونون بجانبي

أخذت أجمع الأشياء وذهبت في صباح اليوم التالي

إلى دار المسنين لأخبر أمي أني سأغيب عنها شهر تقريبًا لأسباب طارئة وتقبلت هذا في حزن لكنني حاولت أن أطمئنها ولم أتركها إلا وهي ضاحكة

ثم لحقت بهم وانطلقنا في رحلتنا

هذه المرة واجهنا صعوبة في عبور الحدود بسبب الدمار الذي تعانيه سوريا

لكننا عبرنا على أي حال

كنت خائفة أن يكون حدث مكروه للطفلين

دعوت الله كثيرًا أن يكونا سالمين

أفضل ما حدث من وراء تلك الدعوة هو أني أخيرًا سأستطيع رؤيتكما من جديد

أشعر أن بي قلق عليكما وحنين أكبر من شعور قد يحتل شخصًا ،كانت مهمته الوحيدة هو الاعتناء بكما

وعندما وصلت للقرية كانت بحالة جيدة .. لم يصل القصف إليها بعد

ذهبت لمنزل الطفلين وكلي شوق لهما فوجدت أحد الأشخاص بانتظاري

إنه صاحب الملامح الهادئة

+ وأخيرًا وصلتي أيتها الزهرة

– كيف عرفت أني سآتي

+ أنا أعرف كل شيء .. أمازلتِ تسألين كثيرًا كعادتك ؟

❋ فأخذت أضحك ❋

– ومازلت تُفضل أن تكون غامضًا كعادتك

❋ وأخذنا نضحك نحن الاثنان ❋

+ أتعلمين شيئًا .. لقد اشتقت إليكِ بحق

❊ نظرت إلى أسفل في خجل ..

جعلنـي هـذا الموقـف أتذكـر اليـوم الـذي انتظرتـك فيـه لتأخـذ منـي بعـض المحـاضرات

لتأتيني بعد نصف ساعة راكضًا ومُعتذرًا لتأخرك

أخبرتـك حينهـا أنـه أمرًا عاديًا لا داعي لكل هذا الأسـف

ولكنـك لا تسـامح نفسـك بسـهولة حتـى عـلى مثـل تلـك الأخطــاء الصغيرة

وعندما نظرت إليك لاحظت جُرحًا في رأسك

وفي خـوف منـي ودون وعـي مـددت يـدي إلى الجُـرح ووضعـت أصابعـي عليـه

وسألتك كيف حدث هذا

وعندمــا أدركــت مــا أفعــل ســحبت يــدي وتخضبــت وجنتــاي احمــرارًا

ووسـط نظراتـك المندهشـة أدرت وجهـي عنـك في خجـل شد يد

فأخذت أنت تضحك

بعدها أخبرتني ألا أقلق هذا خدش صغير فحسب

لـن تصدقنـي إن أخبرتـك أن وجنتـاي ظلتـا بلونهـما الأحمـر طـوال هـذا اليـوم

ولم أجـرؤ أن أنظـر إليـك أو أتحـدث معـك لأربعـة أيـام متواصلـة بعدهـا

وكلما تذكرت أضحك كثيرًا كما فعلت أنت يومها

و تحمر وجنتاي أيضًا ..

أفتقدك يا يوسف من كل قلبي .. أفتقدك ❋

– ....

أين الطفلين ؟

❋ ليبتسم لي ❋

+ هما في الداخل

– سأذهب لهما ..

وعندمـا رأيتهـما ورأيـاني تـركا الألعـاب وركضـا إلي وارتميـا بـين ذراعـايّ فبكيـت وقبلتهـما .. كـم كنـت مشـتاقة إليكـما .. كـم أحبكـما ..

❋ فبدأ الاخ الأكبر الحديث قائلًا ❋

+ أين كنتِ كل هذه الأيام يا أمي ولما تبكين

– كنت أنا الأخرى عند أمي كنت أشتاق إليها فذهبت لأراها

وأبكي لأني اشتقت إليكما أيضًا

+ لما لم تأخذينا معكِ ؟

- الأمر أصعب مما تعتقد يا صغيري

+ نحن اشتقنا إليكِ يا أمي

* فيقول الأخ الأصغر *

- لا تذهبي وتتركينا .. فنحن لا نجد من يلعب معنا أ يروي لنا قصصًا مُضحكة أو يجلس بجانبنا حتى ننام .. نحن نريد أن نظل معكِ

- وأنا أيضًا أريد ذلك أكثر منكما

* أخذت أمسح دموعي محاولةً أن أبتسم *

- أتعرفان .. لديّ لكما أخبارًا رائعةً

سنسافر معًا

* لتظهر علامات الفرح على وجهيهما *

+ حقًا !! إلى أين ؟

- إلى بلد العراقة .. إلى مُوحدة الأديان

تلك البلد التي كانت في زمن ما مقصداً للجميع ..

حتى دخلها من زعموا أنها لهم فدمروها واحتلوا أرضها وقتلوا أهلها

إلى أرض السلام التي غاب عنها السلام إلى أجل غير مُسمى

* فيرد الأخ الأكبر *

+ لا تحزني يا أمي .. ولا أنت يا أخي

فعندما سنذهب إلى هناك سأنقذهم وسأبني البلد سأجعلها جميلة مرة أخرى

سأعيد للجميع السعادة والسلام

وبعدها لنحيا هناك .. فأنا لا أستطيع النوم

وأصبحت أرى أخوتي في الحلم كل ليلة وهم يُقتلون ..

لم أعد أريد العيش هنا .. أنا خائف

* احتضنته ..

وحينها خرجت مني تلك الكلمات التي قلتها لي

تلك الكلمات التي تطمئنني كلما تذكرتها .. لأني دومًا كنت أصدقك ومازلت *

- أنت تصدقني أليس كذلك ؟

+ أجل ..

- وحينما سأقول لك أن كل شيء سيكون على ما يرام .. أن كل شيء سينصلح

هل ستصدق ؟!

+ امممممم ... أجل سأفعل

- إذن لا تخاف .. فمن تلك الثانية أنا لن أترككما

ولن أهدأ حتى يعود كل شيء كما كان وأفضل ..

+ أتعدينني بذلك يا أمي ..

❋ تلك الجملة جعلتني أستوعب ما قلت

أعدك !!

هل تريدني أن أعدك ..

أين كان عقلي وأنا أقول هذا الكلام ..

أي وضع ذاك الذي سأجعله أفضل وكيف سأتمكن من أن أظل بجواركما إلى الأبد ...

ماذا فعلت !!

وبعد صمت استجمعت شجاعتي وقلت ❋

- ....

أعدك ..

❋ وليزداد عقد الوعود الذي يزين جيدي واحد .. سأطلق عليه الوعد الأكثر استحالة .. وآسفة أنه في قانون الوعود خاصتي إن لم أستطع أن أفي بوعدي فعلى أقل تقدير لن أنفك عن المحاولة حتى أموت .. كم ستشقيني

وعـودي تلـك !! *

+ وأنا قبلت الوعد

* ثم قال لي محذرًا *

+ أنا لا أنسى يا أمي

* فضحكت وقلت *

- وأنا لا أفعل أيضًا ..

إذن ..

هل أنتما مستعدان للسفر وخوض تلك المغامرة معي ؟

* ليقولا بحماس وصوت عالٍ جدًا *

+ مستعدااان

مكثـت معهـم عـدة أيـام في البـلاد أُطمئـن والدهمـا بأنهـما سـيكونان بخـير معـي

وطالما أنا حيه فلن يصيبهما أي مكروه فالقلق لا يفارقه

يخشـى أن يخـسر أخـر مـا تبقـى لـه .. الأمـر ليـس يسـيراً عليـه، لكنـه وافـق عـلى ثقـة بي

ولكـن أنـا الأخـرى كانـت تأتينـي لحظـات أشـعر أني لـن أسـتطيع حمايتهـم

فأتراجع وأفكر في أن أذهب وحدي

لكن أيضًا أخاف إن تركتهما أن ..

لا .. لا لن أفعل ..

بعيدا عن خوفي عليهما لقد قطعت وعدا ... وأنا لا أخلف وعودي

لن أفارقكما .. سأخذكما معي وسنعود جميعنا بخير

رويت لهما في الوقت الذي قضيته معهما قبل السفر عن تاريخ فلسطين

وكلما تحدثت معهما عنها زاد شوقهما للذهاب وزاد شوقي معهما

بعد عدة أيام سيحين وقت الذهاب

أشعر وكأني ذاهبة بجيشي لأقاتل

هي بالفعل حرب ..

حربي الخاصة

حربي التي قد لا تعني لأي شخص أي شيء، لكني آمنت أنه دومًا هناك سببًا لما يحدث .. دومًا آمنت بإشارات القدر وعطاياه

مَنْ يدري ... فكما قلت لي ذات يوم

نحن نفعل كل هذا «لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا «

ويتغير شيء ولو بسيط ..

***

وبعد مشقة دخلنا موطن أولى القبلتين ..

حيث استضافنا عائلة من الكرماء في أحد أحياء غزة

وعلى الرغم من صوت الإنفجارات وطلقات النيران هناك طمئنينة في كل مكان لا أعلم لها مصدراً حتى الفزع الذي كان يملىء الطفلين تلاشى

وتوقفت الكوابيس عن مطاردة الأخ الكبير

لا أدرى لأنهما اعتادا تلك الحياة أم لأن السلام حقًا مازال قابع في ثنايا هذه الأرض

ومنذ وصلنا والطفلين تنتابهما حالة من النشاط والبهجة

فأصبحا كثير الخروج واللعب والتعرف على الأطفال

لا يدخلان المنزل إلا لتناول الطعام أو النوم

أما عني فكنت معظم الوقت أراقب صغاري وأطفال الحي

خوفًا عليهم .. ورغبة في أن أقتبس من سعادتهم جزءاً، ومن شجاعتهم أطنانًا كنت أجمعهم عند الظهيرة ونجلس في أحد الأركان لأعلمهم القراءة والكتابة والرياضيات كعادتي القديمة مع أطفالي من عامين ولكن الآن هناك الكثير منهم وعددهم يزداد يومًا بعد يوم كم أعشق فعل هذا !!

منـذ أن أتينـا والحـي بـات أكثـر ضجيجًـا ففـي الصبـاح يجتمـع الأطفـال ويـزداد الصخـب واللعـب والشـجار ويـزداد معهـم صراخ الأمهـات

وليـلًا يُوقـدون النـار في الحطـب الـذي جمعـوه نهـارًا ليجلسـوا حولـه ويتشـاركون الحكايـات .. المضحـك منهـا والمخيـف

الحقيقي منها والخيالي وما أدراك ما خيال الأطفال !!

وكأن أشـخاصًا آخريـن يتشـاجرون كل الصبـاح ويزعجـون الحـي بِرُمتِـه !

ليـت الشـجار يتوقـف عـلى الصبـاح فعنـد منتصـف الليـل أيضًـا تحـدث معـارك مـن نـوع آخـر، لكـن تلـك المـرة بـين الأبـاء وأولادهـم

لا أعلـم مـا سر إصرارهـم عـلى البقـاء في الخـارج حتـى بعـد أن أعياهـم التعـب والإرهـاق مـن كثـرة اللعـب والركـض والقفـز طيلـة اليـوم لا يريـدون أن يفترقـوا .. يريـدون أن يظلوا معًـا .. أعتقـد أننـا لـو تركناهـم هكـذا لعـام كامـل لـن يملـوا

هـم وحدهـم لا يعرفـون الحـدود أو الجنسـيات أو تأشـيرات السـفر .. لا يؤمنـون بـكل تلـك الحواجـز فـكل مـا يعرفـون أنهـم عـرب يتحدثـون نفـس اللغـة ويؤمنـون بنفـس الـرب

واجتمعوا معًا ..

كأنهم كانوا ينتظرون هذا اليوم منذ ولادتهم

عشـنا في البدايـة أيامًـا عصيبـة فللأسـف حتـى أبسـط احتياجـات الإنسـان ليعيـش قـد لا نجدهـا لكـن عـلى الرغـم مـن ذلـك كنـا سـعداء وتملؤنـا السـكينة

علي أي حال لقد اعتدنا ما هو أقسى من ذلك ..

نحن مجرد زوار سيأتي علينا يوم ونغادر ..

الأزمـة الحقيقيـة يحياها هؤلاء النـاس فإلى أين سـيغادرون !!

قضيـت فـترات مـا بعـد الغـروب في تحضـير كلمـة الحفـل والتفكـير مـع صديقـي بشـأن ترتيبـات دخولنـا ووضـع الخطـط والخطـط البديلـة

ولمـا كانـت الكلمـة هـي أسـاس كل مـا نفعـل حاولـت جاهـدة صياغتهـا بقـوة

لتنتهـي المحاولـة كل مـرة بكومـة كبـيرة مـن الـورق الممـزق مبعثـرة عـلى أرضيـة الغرفـة

دون نتيجة تُذكر ..

وذات نهـار جلسـت أشـاهد الفتيـان يسـتعدون لبـدء مبـاراة كـرة القـدم

وأراقـب الـصراع المسـتمر بينهـم وبـين الفتيـات بخصـوص هـذه اللعبـة

فالفتيـان مقتنعـون تمـام الاقتنـاع أن الفتيـات لا يعرفـون اللعـب

والفتيـات مقتنعـون تمـام الاقتنـاع أنهـم يجيـدون كـرة القـدم أكثـر مـن الفتيـة

وأنـا مقتنعـة تمـام الاقتنـاع أني أنتظـر هـذا الجـدال لأبكـي مـن كثـرة الضحـك

وبينما أنا مندمجة معهم حضر صديقي

+ إلى ما وصلتِ ؟

- لا شيء ..

+ لما ؟

- إن أمـر هـذا الاحتفـال يؤرقنـي .. لا أجـد حديـث بإمكانه وصـف مـا رأيـت .. لا يوجـد تعبـيرات بإمكانهـا تغطيـة هـذا الكـم مـن الظلـم والألم

مـاذا سـيحدث لـو لم أنجـح .. لـو لم أحـرز أي تقـدم يُذكـر .. لـو لم تنجـح تلـك الكلمات في إحـداث فـارق .. مـن سـألوم حينهـا

هــل ألــوم نفـسي لأنــه قــد أتتنــي الفرصــة ولم أســتطع اسـتغلالها، أم ألومهـم لأنهـم لا يعرفـون الرحمـة .. أنـا مشـتتة حقًـا .. رأسي يـكاد ينفجـر مـن كثـرة التفكـير

+ كفى كفى .. اسمعيني جيدًا ..

لا تفكـري في أي شيء الآن فقـط اسـتمتعي مـع الأطفـال وشـاهدي المبـاراة

ولنا لقاء في المساء عند حلقة الحكايات

– اتفقنا ..

+ سأذهب الآن لإنهاء بعض الأمور وسأعود ليلًا

تذكري ما قلت .. استمتعي فقط

– حسنًا ..

وآتى المساء ..

جلسـت عـلى حجـر قريـب مـن الحلقـة اسـتمع للقصـص.. و أنتظر

حتى وجدت شخصًا يخرج من جوف الظلام ويقول

+ هل بإمكاني أن أسألكم سؤالًا

* فنظروا جميعهم إليه باهتمام *

+ أخبروني ما هي أمنياتكم ؟

* فكروا للحظات ثم قالوا *

= أنا أريد أن أموت كي أذهب لأمي

= و أنا أتمنى العودة إلى المدرسة

= و أنا أريد أن تقتنع جدتي بأني أصبحت كبيرًا و تتركني اذهب لإحضار الماء كل صباح بدلًا عنها

= أنا أريد أن أكبر سريعًا لأطرد هؤلاء الأوغاد من أرضنا

= و أنا أيضًا

= و أنا كذلك

= أنا أريد أن ألعب مع أبي فكلما ذهبت إليه أخبرني أن أتركه وشأنه

لا أعرف لما يحمل همنا طيلة الوقت .. إنه تقريبًا لا يأكل شيئاً كي يوفر طعامًا لنا

* وقال ابني الكبير *

= أنا أريد أن أقتل من قتل أخوتي

= أنا أريد أن أحيا حياة كتلك التي أراها في التلفاز حيث الناس سعداء

لا خوف يشقيهم ولا احتلال

= أنا أمنيتي تختلف عنكم قليلًا .. أنا أرغب فقط أن تتزوج أختي ..

أن تكون سعيدة .. فكلما تحدثت أمي معها بشأن الزواج صاحت أختي قائلة

«أن أظــل عانســاً خــير لي مــن أن أنجــب أطفــالاً يكــون مصيرهــم أن يُعذبــوا كــما نُعــذب أو أن يُقتلــوا فأتعــذب أنــا لفراقهــم»

- وأنت يا صغيري ؟

= أنا .. أنا ... أنا لا أمنيات لديَّ

- لما ؟

= لأن امنياتي لا تتحقق فما فائدتها ..

أنــا لا أصــدق .. أنتــم أيهــا الأطفــال !! .. أنتــم مــن تقولــون مثــل هــذا الــكلام !!

وأنا التي ظننت أنكم لا تبالون لشيء

أنتم تعرفون وتشعرون كل ما نعتقد أنكم تجهلونه

غادرت المكان بحزن فتبعني صديقي

+ ماذا هناك .. لما ابتعدتي .. لم ينتهي الأطفال بعد

- يكفيني ما سمعت ..

أتعلــم أمــرًا .. خُيــل إليَّ أني أصبحــت أبــصر الواقــع وأعــرف إلى أي مــدى هــو مُفجــع

وعلمت الآن إلى أي درجة كُنت ضعيفة البصر

سبحان من بيده ملكوت السماوات والأرض ..

وكأن كل مـا يحـدث يحـدث فقـط ليجعلنـي أدرك أنـه كان عـلى صـواب عندمـا أصر أن يسـتمر في التضحيـة بـكل مـا يملـك في سـبيل المطالبـة بالحـق ..

في سبيل الدفاع عنا جميعًا

طلبـت منـه أكثـر مـن مـرة أن يتوقـف .. أن يخـاف على نفسـه

ههه .. كم كنت غافلة

+ عن من تتحدثين ؟

- لا أحد .. لا تبالي ..

لما سألت الأولاد عن أمنياتهم ؟

+ لتعرفي كم يتعلق بك الكثير من الآمال

أن الضعـف أو الخـوف أو الـتردد ليسـوا مـن الخيـارات المطروحـة

أي كلام كنـت سـأقوله ليحفـزك لم ولـن يكـون لـه أثـر مـا قالـه الأطفـال

كان يجب أن تسـمعين بنفسـك منهم وتريـن أن بهجتهم مزيفة

❊ ما كان بي إلا أني صمت ونظرت إلى السماء ..

يـا الله .. أنـا لا أعـرف مـاذا يجـب عـليَّ أن أقـول لـك .. لا أعـرف لمـا وكلتنـي كل هـذا

لستُ إلا أمةً ضعيفة ترجو رحمتك وأنت تعلم بضعفي أكثر مني

ازداد حملي وكلما زدت ضعفًا زدتني ثِقلا .. أرني حكمتك وعجائب قدرتك يا الله ❋

- تلك الكلمة ستُكتب الليلة

سأذهب .. تُصبح على خير

+ و أنتِ من أهل هذا الخير

عدت وسطرت الكثير من الجُمل .. ألقيت بكل أحلامهم المحطمة على الورق

وجلست أتأمله منتظرة أن يعيد إحيائها من جديد

فسقطت من جفوني عَبرة تخبرني أن الموتى لا يستيقظون

فكتبت لها « الْمُوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » ونمت على الكرسي من التعب

في الصباح عرضت على صديقي ما كتبت فقال بفرح

«أجل .. هذا ما كنت أنتظره .. يجب عليكي التدرب عليه حتى يحين الموعد»

❋❋❋

بعد مرور أسبوع ..

بالتحديد في ليلة الاحتفال

قام شجار بين أحد شباب الحي وجندي من المحتلين فأطلق عليه الجندي النار

عندها ثار كل من في المنطقة واشتعل الغضب بين الأهالي والجنود

ولم ينطفئ ..

أحرقوا أكثر من منزل وشردوا أكثر من عائلة

كانت ليلة عسيرة ..

اضطررنا - أنا وبعض رجال الحي - تخبئة الأطفال في بيت من البيوت النائية إلى أن تهدأ الأوضاع ومكثت مع الأطفال هناك

وأكدوا علينا ألا نخرج لأي سبب ثم أغلقوا الباب وعادوا لينقذوا ما يمكن إنقاذه

ما زاد الموقف سوءًا وجود الأخ الأصغر لذاك الشاب معنا

ظل يبكي طويلًا على وفاة أخيه

حاولت أن أسكته ولا شيء يجدي نفعًا والأطفال جميعهم في ذعر

فاستجمعت قواي وخرجت من خوفي

وبعـد عـدة مـرات فاشـلة استطعت وأخـيرًا أن أضحكهـم كلهم . .

كم أشكر نفسي على هذا الانجاز العظيم . .

وعـلى غفلـة منـا أثنـاء الفـرار بالأطفـال اسـتطاع أن يتتبعنـا ذاك الجنـدي الحقـير

راغبًـا في قتـل الصغـير انتقامًـا ؛لأنـه ظـن أن أهـل الحـي أنقـذوا حيـاة أخيـه

وبعـد أن اطمئـن بابتعـاد رجـال الحـي عنـا مسـافة كافيـة تجعـل اسـتغاثتنا لا تصـل إليهـم أخـذ يكـسر البـاب

وأخذت الأطفال تصرخ وتبكي وتستنجد بي

ما كان بوسعي إلا أن أخبئهم في إحدى غرف المنزل

ثم التقت عصا معدنية ووقفت ممسكةً بها أمام الباب

حتى انكسر . .

فأحكمت قبضتي على العصا وحاولت أن أضربه

وهـو مـن الجهة الأخرى لم يـتردد لحظة في أن يطلـق النار عليَّ

لكـن العصـا ارتطمـت بالسـلاح وأوقعتـه أرضًـا فالتقـت السـلاح بسرعـة

وهددتـه بـه عـلى الرغـم مـن عـدم معرفتـي بكيفيـة اسـتخدام تلـك الأسـلحة

إلا أني صرخـت فيـه بـكل ثقـة قائلـة « هيـا ارحـل قبـل أن أ قتلك »

فركض خائفًا إلى الخارج

عندهـا أغلقـت البـاب وأحـضرت متـاع المنـزل ثـم وضعتـه كلـه خلـف البـاب

أخـذت نفسًـا عميقًـا وجلسـت بعدهـا عـلى الأرض في ارتيـاح

لأرى دخانا كثيفًا أمامي

لقد أشعل المجرم النار في المنزل من الخارج وهرب

ولسـوء الحـظ كان الحريـق بالقـرب مـن غرفـة الأطفـال فأزحـت الأثـاث مـن خلـف البـاب وذهبـت سريعًـا لإخراجهـم

لكنـي تأخـرت أثنـاء إزالتـي للمتـاع حتـى اشـتعلت النـار داخـل الغرفـة فانفجـر زجـاج النوافـذ ووقعـت علينـا القطـع المنكـسرة

بعضهـم أصيـب بحـروق وجـروح وأصبـت أنـا الأخـرى وأنـا أحـاول إخراجهـم

لكـن غادرنـا جميعنـا المنـزل المشـتعل أحيـاء وهـذا أهـم مـا في الأمـر

أشرقت الشمس وهدأت الدنيا ..

وبينما نحن نجر أقدامنا عائدون للحي

رآنا أحد الرجال وأخذنا لنستريح عنده بعض الوقت

فبـدأت حينهـا أطهـر وأضمـض جـروح الأطفـال لينامـوا بعدهـا باستسـلام

وداويت حروق يدي وجروح وجهي ورأسي

ما ذنب هؤلاء الأطفال في تلك الحرب الرخيصة

اليوم هو أول أيام احتفال السلام

تبًا لكم وللسلام الذي تزعمون .. كم أمقتكم

جلست في موضعي على إحدى الكراسي حتى الظهيرة

لا أستطيع التحرك أو النوم من شدة حزني والألم في جسدي

استيقظ الأطفال ووصلت الأهالي لتطمئن على صغارها

لقـد احـترق معظـم الحـي وأخـذت كل عائلـة تسـتضيف في منزلهـا أسرة أو اثنتـان إلى أن يُعيـدوا المـكان كـما كان وأفضـل

يـا ليـت بلادنـا العربيـة تتعلـم منكـم كيـف يكونـون قـوة وسـند بعضهـم البعـض

لمـن أقـول هـذا الحديـث وأنـا أدرك جيـدًا أنهـم جعلـوا أصابعهـم في آذانهـم واستغشـوا ثيابهـم و أصروا واسـتكبروا اسـتكبارا

ولا أمل في أن نعود كما كنا

حسـنًا هـي مجـرد أمنيـة فحسـب .. فأحيانًـا لا ضـير ببعـض التمنـي

عمري أصبح بضع أمنيات

أن يعـود السـلام .. أن أظـل مـع صغـاري .. أن تعـود أنـت لي

أمنيات أمنيات أمنيات

والمتحقق منها فقط هو عدة لحظات سعادة

لحظـات مـن السـلام .. ولحظـات مـع صغـاري .. ولحظات معك ..

لحظات لا تزيدني إلا وجع تذكرها وألم فقدانها

لا تغيب عن خاطري لدقيقة فأين أنت من عالمي ؟؟

اعتذرت لي قبلًا عن عدم وجودك

اعتـذرت لي أنـك تركتنـي وحـدي أعـاني فلـما تركتنـي ثانيـةً يـا يوسـف

ها أنا أعاني من جديد فأين أنت لتحميني

أيناك !! ..

لقد قام صديقي ببحثٍ مطول عنا

إلي أن رأى الأولاد بــدأت تعــود مــع أهاليهــم فاستســلم وقــرر أن ينتظرنــا في منــزل العائلــة التــي اســتضافتنا ..

وعندما عدت أنا والطفلين كانت حالتي يُرثى لها

عينــان دامعتــان وجــروح وضــماض .. منهكــة وأكاد أســقط مــن شــدة الإعيــاء

وملابسنا مليئة بالأتربة والسواد من الركض والحريق

الطفلان متعبان جدًا

بهما عدة جروح صغيرة لا تؤلمهم وهو ما أراحني قليلًا

+ لا حــول ولا قــوه إلا بــالله .. كيــف حدث لكــم كل هذا !!

ألم تكونوا بمعزل عما دار في الحي

- لا أستطيع التكلم ..

+ حســنًا أتفهــم هــذا.. هيــا اذهبــي واســتريحي أنــتِ والأطفــال

- والاحتفال ...

+ لا بأس غدًا نذهب ألن يستمر ليومين ؟!

- أجل لكني أريد الذهاب اليوم

+ هل جُننتِ

أنـتِ الآن قولتـي لا أسـتطيع التحـدث فكيـف سـتذهبين إلى هنا ك

انظري إلى نفسك .. أنتِ بالكاد تقفين على قدميكِ

- النـيران التـي بداخـلي في تلـك اللحظـة سـتدفعني إليهـم دفعًـا

ستجعلني أقول كلمات تكفي لملء صحف العالم ..

فلا تحاول منعي لأني سأذهب اليوم

عـدت فقـط لكـي أخـذ أوراقـي والدعـوة وأخـبرك أني راحلـة

+ حسبك .. ماذا جرى لك ... اهدأي واسمعيني قليلًا

- لن أفعل ..

* ووضعت يداي على أذني *

+ مـــاذا حدث !!

ماذا بكِ !!

لا تجعـلي الغضـب يسـيطر عـلى عقلـك .. عـلى الأقـل اسـتمعي لمـا أريـد أن أقـول

* قالها وهو يصرخ في وجهي ويزيح يداي لأسمعه *

- أنا أخبرتك أني ذاهبة وهذا هو قراري

+ كيف !! .. ستذهبين بهذه الحالة المدمَرة وتلك الملابس

- أجل

+ هلا فكرتي فيما أنتِ مقبلة عليه

- فكرت

+ وماذا فعل لكِ الطفلين لتأخذيهما وهما متعبان هكذا

- هما بخير

+ لن تغيري قرارك إذن

- أجل

* تنهد في يأس *

+ حسنًا .. سأحضر أشيائي وسآتي معكِ

- لا داعي لهذا

+ وكيف ستُدخلين الولدين .. وماذا عن كل ما خططنا له

- سأتصرف بخصوص هذه الأمور .. أنا لا أريد أحدا معي

+ يبدو أن الكلام لن يجدي نفعًا .. كما تشائين اذهبي وضيعي كل ما تعبنا لأجل حدوثه واجعلينا نخسر فرصتنا الأخيرة ..

آه .. ولا تنسي أن تعتني بنفسك وبهما

* قالها بغضب وترك المنزل *

- سأفعل .. سأعتني بنا جيدًا

***

لم يسهل على دخول الأراضي المحتلة

حيث أنه كان يجب أن أصل في طائرة البارحة القادمة من مصر

لكن هذا لم يحدث لذا أخذت إجراءات دخولنا وقتًا

الحراسة مشددة جدًا هنا

بالطبع ..

فأولئك الأشخاص بالداخل هم فقط من يحق لهم الحياة

ويذهب باقي البشر إلى الجحيم

وكأنهم المختارون .. كأنهم من نسل أنقى

وقفت أمام الباب فنظر إليَّ الحارس باشمئزاز وقال

+ مَنْ أنتِ ... و كيف أتيتِ إلى هنا ؟؟

- أنا معي دعوة

+ ماذا !!

- معي دعوة لهذا الاحتفال

+ مِن مَنْ سرقتها ؟؟

- لم أسرق شيئاً ... هي لي

فأخذهـا منـي وأخـذ أوراق السـفر ليتأكـد أني حقًـا مـن المدعويـن

كل ما أدهشه في الأمر هو المظهر الذي أبدو عليه

فلم يدخل أمامه سوى أرقى شخصيات العالم

فكيف أنا أدخل إلى هناك !!

تغيرت طريقة حديثه معي تمامًا عندما تأكد أني مدعوة

+ حسنًا

أعتذر عن هذا الخطأ

يُمكنك الدخول ولكن الطفلين ستجعلينهما معنا هنا

- كيف أدخل وأتركهما .. هما فقط طفلان صغيران

كيف سيؤثران على مسار اليوم

+ أنا أعتذر ولكنها تعليمات

- إلى الجحيم أنت وتعليماتك لن أدخل بدونهما

* قلتهـا بصـوت مرتفـع فنظـر إليَّ جميـع مـن كان عنـد البوابـة *

+ أرجوكِ اهدئي .. انتظريني خمس دقائق فقط

* أجـل .. لم يكـن لـديَّ أي أفـكارا أو خططـاً لإدخـال أطفـالي إلى هـذا الاحتفـال بعدمـا ضحيـت بـكل شيء وتتبعـت غضبـي فتصرفـت بتلقائيـة « أم « ولم أظـن أن هـذا سـينجح *

+ تفضلي .. يمكنك الدخول بهما .

توجهت حينها إلى ساحة الاستضافة

ها نحن أخيرًا قد وصلنا سالمين إلى ..

حقل الألغام !

ذاك الكم البشع من الجنود المسلحة حولنا..

جعلني أضم الطفلين في رعب

أطبقت جفوني وجف حلقي

فبمجـرد أن تـراودني فكـرة « أني أقـف الآن عـلى أرض إسرائيـل ووسـط هـذا العـدد مـن سـافكي الدمـاء « أتخيـل مشـهد موتنـا الـذي لـن يترحـم عليـه أحـد

وعـلى الرغـم مـن أني دُعيـتُ إلى هنـا والأجـواء المحيطـة تشـير إلى اسـتحالة وجـود خطـر علينـا ... لكنـي بـت لا أتوقـع منهـم إلا الغـدر

ثم بدأت أنظر لجميع مَنْ في الساحة

في محاولـة يائسـة لاسـتعادة وعيـي مـن حالـة الذعـر التـي سـيطرت عـليَّ

لأرى أهم شخصيات العالم

رؤساء .. وزراء .. سفراء .. ممثلين .. رياضين وصحافة

أطمـأن قلبـي نوعًـا مـا أنـه لـن يتجـرأ أي جنـدي مـن إطـلاق الرصـاص هنـا

فاسـتفقت .. وعـاد إليَّ الشـعور بـالألم الـذي كان قـد تملّـك مـن جسـدي و الاحسـاس بالحروق و الجـراح الصغـيرة التي به

أنظـر للصغيريـن اللّـذان هدهمـا ثقـل البارحـة مـن حريـق وركـض و خـوف

وأرى محاولتهـما في الصمـود معـي للنهايـة فتمـوت بقايـا خـوفي

وأتذكر ..

مشـهد أولادي الثلاثـة الذيـن لم يبلغـوا حتـى مـن العمـر أدنـاه

و هم في أكفانهم البيضاء الملطخة بالدماء

يُردمون تحت التراب

أتذكر ..

أبي الـذي تركنـي آتي بثقـة كبـيرة .. وحـب كبـير .. وخـوف أ كبر

أتذكرك .. يوسف ..

أيـن أنـت الآن ؟ هـل يوجـد أهـم مـن اللحظـة القادمـة في حيـاتي لتكـون بهـا ؟!!

أحتاجك بشدة .. وأشتاقك .

فيُخرجني صوت ما من شرودي ليقول بغضب :

+ أيتها المرأة كيف دخلتي أنتِ وأولادك !!

اخرجي من هنا حالًا

- أنـا لسـت هنـا لأتوسـل لكـم أو لأتأمـل الزينـة المبهـرة للمـكان أو حتـى لأنتقـم ..

أنـا مدعـوة إلى هـذا الحفـل مثـلي مثـل جميـع الأشـخاص المهمـة التـي تراهـا حولـك

* ليقول في استنكار *

+ وأين تلك الدعوة ؟

- ها هي ...

فيندهش هو بينما أكمل أنا والصغيران طريقنا للقاعة الكبرى

يمر الآن أمام عيني شريط الثلاث سنوات السابقة

وأبتسم في تعجب من حكمة القدر

التي أتت بي وبكما ..

داخل هذا اللغم الذي يُلقبونه « احتفال السلام » ..

لنفجره ..

القاعة كبيرة جدًا وباب الدخول من الخلف

دخلت وجلست أنا والأطفال بالقرب من الباب

لم أسعَ حتى أن أجلس بالمقدمة

على الرغم من أننا كنا بعيدين عن الأنظار قدر المستطاع إلا أنهم انتبهوا لوجودنا

نظر الجميع إلينا باستغراب شديد وكأنهم يقولون من هؤلاء ؟!

وكيف تُدخلون هذه الحثالة إلى هنا !!

ربما لو كنت ارتديت فستانًا عاريًا يصحبه حذاء ذو كعب عالٍ وبعض المجوهرات الثمينة لكنت استحققت أن أكون بينهم كما يدَّعون

وقف أحدهم على المنصة ليتحدث وأنصت الجميع له بإعجاب

عدا أنا ...

حديثه لا يعني لي شيئاً

في النهاية هو مجرد كلام منمق لا صدق فيه

جلست في هدوء شديد واحتضنت الطفلين حتى استمعت تلك الكلمات :

« أرى أن اليوم يشهد عالمنا سلام كان يفتقده بشدة العقود السابقة

لقد انتهت الحروب وأصبح التقدم التكنولوجي له السيادة الأولى في تفكير الدول

لم يعد هناك رغبة من الدول في محاربة بعضها البعض

للحصول على الكنوز ؛لأن كل دولة الآن تستطيع صناعة كنوزها بجهودها الداخلية

فالحقيقة أن حرب اليوم هي حرب العلم

وأننا أصبحنا نحيا في سلام حقيقي يُمكنُنا أن نبني حضارات في ظله»

- أجل وأنا أعلم هذا

والدليل هو ذاك الدمار الذي أحدثه الجنود العظام في أحد أحياء غزة البارحة

أجل أجل .. أنت صادق بالطبع ..

❋ قلتهـا بصـوت عـالٍ عـلى مسـمع مـن الجميـع وأنـا في طريقــي إلى مقدمــة القاعــة تاركــة الطفلــين جالســين عــلى الطاولــة ❋

بدأ صوت الهمس يعلوا في داخل القاعة ولا أحد يفهم شيئاً

فوقفت بجانبه وقلت

- كم .. أنت .. كاذب

كبير ..

ازداد علـو الأصـوات فركـض الطفـلان تجاهـي في خـوف ليحتمـوا بي

أمسكتهم وضممتهم إليَّ

مَـنْ هـذه المخلوقـة وكيـف يمكـن أن تكـون تـم دعوتهـا لمثـل هـذا المـكان

كيف تتجرأ وتقول كلام كهذا لذاك الضيف المهم

أهي مريضة عقلية أو ما شابه ؟

تلـك كانـت التعليقـات التـي سـمعتها مـن كلامهـم فبـدأت بعدهـا التحـدث مـن جديـد لأخرسـهم جميعًـا ضاربـةً بـكل الكلـمات التـي اعددتهـا، وكل مـا سـهرت وتدربـت عليـه ليـالي عـرض الحائـط

- « نعم .. أنا من المدعوين

أنا مسلمة عربية مصرية عاقلة

ومظهـري وملابـسي وجروحـي وصغـيراي والسـوء الـذي أحـل بهـما

وكل مـا ترونـه الآن مـا هـو إلا نتيجـة السـلام الرائـع الـذي نحيا ه

في الواقع من شدة السلام لم أحتمل الأمر

فذهبت وأشعلت منزلا وألقيت نفسي والطفلين فيه

لم أكتفي بهذا، بل أحضرت سلاحًا وهددتني والطفلين بالقتل

ليدركوا كم السلام الذي نعيشه

فهم لا يعرفون مقدار النعمة العظيمة التي تسود أمتنا

* بعدهـا تحولـت نـبرة صـوتي مـن السـخرية إلى الجديـة البالغـة وقلـت *

هـل تظنـون أنكـم وحدكـم لكـم الحـق بـأن تعيشـوا حيـاة كالحيـاة !!

هيا أجيبوني ..

تتركـون بلادنـا تضيـع مـن وراء أفعالكـم وتأتـون هنـا لتحتفلـوا بالسـلام

أي سلام .. أنتم اغتصبتم السلام منا واليوم تحتفلون بموته

والأجدر أنا يُقام العزاء على إحساس السلام والتقدم الذي عاشته حضاراتنا زمنًا .. فاليوم ليس هناك سوى دماء وحرائق وضحايا

ليس هناك علم، ليس هناك رخاء

ليس هناك أي شيء يدل على أنه ستتحسن الأمور

فقر وذل وإهانة وظلم وموت

أبرياء في السجون، أطفال تُيتم ونساء تُهتك أعرضهن،

ورجال يعذبون أمام أعين عائلاتهم

خراب في كل رقعة من أراضينا

صغيراي هذان

أكبر دليل على تلك المهزلة التي تحدث

حُرما من أمهما وقُتل أخوتهما الثلاثة أمامهما

والآن أبيهما عاجز عن الحركة لا يستطيع حماية أطفاله يقضي أيامه حزين في انتظار أن يحن عليه الموت ليُلحقه برفيقته.

هذا هو سلامكم أليس كذلك !!

ما أروعه من سلام !!

سـحقًا لسـلام تفقـد فيـه الضحكـة بسـمتها وتبكـي وتضيـع فيـه الإنسـانية والعروبـة

كم أسخطكم ..

فتبًـا وتبًـا لكـم مائـة مـرة ولقوتكـم ولعلمكـم الـذي جعلكـم تتحولـون لوحـوش لا تعـرف سـوى أن تفتـك بالجميـع لأجـل البقـاء

لكن الخطأ ليس عندكم ..

مـا ذنبكـم إذا كنـا نحـن ضعفـاء فالبقـاء للأقـوى في قانـون عالمنـا هـذا

ونحن نسينا العزة

فأصبحنا نُذل يومًا بعد يومٍ ولا تقوم لنا قائمة

أظـن أن مـذاق الـذل أعجبنـا وأحببنـاه فـما عـاد لدفاعنـا عـن أنفسـنا معنـى

الحق لديكم ...

أنا هي المذنبة

أنـا أتيـت هنـا لأدافـع بـكل قـوتي عـن بلـدان عربيـة ماتـت فيهـا الكرامـة ..

فلما ألوم عليكم

فلو كنا نحن

نحن ..

ما كنتم أنتم الآن

أنتم ..

أنا أعتذر لكم .. أعتذر بشدة ..»

خرجت من المكان منهارة والطفلين في يدي

ركضت بهما حتى غبنا عن أعين البشر وجلست على إحدى المقاعد أبكي

جلسوا بجانبي يجففون دموعي والخوف بادي في أعينهم

أريد أن أختفي من هذه الحياة لا أرغب في العودة

لا أرغب في أن يسألني أحد ماذا حدث؟ .. ماذا فعلتي؟ .. ما كانت النتيجة؟

لأن لا إجابة لديَّ ..

هل كان يجب على أن أنتظر للغد حتى أهدأ كما قال ..

هل خسرنا بالفعل .. هل أضعت كل شيء

لم أخطط لهذا ولا أعرف أين عليَّ أن أذهب ..

نظرت للصغيران راجيةً أن أجد بين نظراتهما الراحة

- سـامحاني .. سـامحاني أن ذاك اليـوم لم أسـتطع أن أحمـي أخوتكـم

سـامحاني أني تركتكـما وحديكـما في أكثـر أوقاتكـما حاجـة إلى مـع أشـخاص لا تعرفونهـم .. أني أتيـت بكـم إلى هنـا وعرضتكما لخطـر كبـير ولم أرحـم حالتيكـما

.. أني لم أفعـل شـيئًا أسـتطيع أن أكافئكـما بـه أو أن يغفـر لي عندكـما عندمـا تكـبرا

أو عند عائلتي .. أو عنده ..

* ليمسح الكبير على رأسي ويقول *

+ نحن لسنا غاضبان منكِ .. أمي أنتِ الأروع

أخذتي تصرخين فيهم بكل قوة

ظننت أني بطل، ولكن منذ أتينا وأنتِ البطلة

طردتي ذاك الوغد يوم الحريق

واستطعتي حماية جميع أصدقائنا وداويتي جروحنا كلنا

واليـوم كنـتِ الأشـجع .. لم يسـتطعوا أن يجيبـوا عـلى حديثـك

أمـي أنـتِ بطلـة عظيمـة ونحـن نحبـك .. فلـما تبكـين لا أفهـم ؟؟

* عانقتهـم وأخـذت أقبلهـم فعلقت دموعي عـلى وجهيهما *

- أنت محق فلقد حان الوقت لنجفف تلك الدمعات

حان الوقت لنحاول أن نجد طريقًا للسعادة

أين تريدا أن نذهب الآن ...

* مسـحت دموعي وحاولـت أن أبدو بحال أفضـل .. أردت أن أنسـيهما معانـاة هـذان اليومـان، بـل معانـاة هـذان العامـان

فقال الصغير *

+ هيا نعد للحي .. أريد اللعب مع أصدقائي

* ويرد الآخر *

+ كلا هيا نذهب لمكان آخر

أمي ..

كل مكان نذهبه يكون مُذهلاً

أتعرفين أين يُمكن أن نذهب أيضًا ؟

- أممم

انتما لستما متعبان ؟!

* ليرد الاثنان في صوت واحد *

+ كلاااا .

❊ فأضحك أنا ❊

- حسنًا دعاني أفكر قليلًا .. أين نذهب ؟

أين نذهب ؟

أين نذهب ؟

....

❊ نظـرت لهـما في ذهــول وملامــح السـعادة الشــديدة عـلى وجهــي ❊

- عرفت أين يمكن أن نذهب

كيف غفلت عنه !!

+ ماذا ؟

- الأقصى .

يا إلهي كيف أكون هنا وأنسى مثل هذا المكان !!

لكــن هــل سيســمحون لنـا بالدخـول فأحيانًـا أهـل البلـد لا يسـتطيعون ذلـك

سأحاول فقط

لربما ..

وصلنا إلى هناك قبل الغروب بقليل

+ أمـي كـم أن هـذا المسـجد كبيييير هيـا ندخل .. هيـا ندخل سأتسابق أنا وأخي للداخل .

* أدرت عيني في المكان كله .. يا الله ..

ما هذا الجمال !!

ومـا زاد المشـهد روعـة تحليـق الطيـور فـوق المسـجد، وتـدرج ألـوان السماء مـا بـين درجـات النيـلي .. الأصفـر .. البرتقـالي والأحمـر *

- لا انتظروا لا تذهبـوا سنذ ....

* ليظهر أحد الجنود أمامي *

+ من أنتِ ؟ وماذا تريدين ؟

* ما بال الجميع هنا يكثرون الأسئلة بسبب وبدون *

- لا أريـد شـيئاً كنـت مدعـوة هنـا للاحتفـال بيـوم السـلام وأردت زيـارة المسـجد

ألا ترحبون بالضيوف !!

+ أريني الدعوة وأوراق السفر

- حسنًا ..

* تفحصنـي أنـا وأوراقـي فحـص شـامل وحمـدت الله حينهـا أن ردائـي واسـع لكـن عـلى الرغـم مـن ذلـك فلقـد

جرحـــت نظراتـــه بشـــدة الأنثـــى داخـــلي وأطـــال النظـــر إلى الحجـــاب ❋

+ ماذا ستفعلين بالداخل

- سؤالك غريب ؟

هذا بيت الله

ماذا يفعل المسلمون بالداخل برأيك

❋ لينظر إليَّ بحدة ❋

+ تحدثي بطريقة أفضل وأجيبي على قدر السؤال

- سأصلي

+ الوقت متأخر ولا يُسمح للنساء بالدخول

عودي أدراجك

- لكن الشمس لم تغرب بعد

+ أنتِ قولتها

الشمس .. لم .. تغرب .. بعد

أي أنه لم يحن وقت الصلاة

- سأنتظر بالداخل حتى يحين

+ أنتِ تكثرين الحديث

❋ ووكزني بالسلاح فوقعت أرضًا، ثم صاح قائلًا ❋

- قلت لكِ عودي إلى أدراجك

هيا ارحلي ..

قمت بسرعة واحتضنت الولدين .. لم أخف على نفسي بل خفت كثيرًا عليهما فلو كنت وحدي لتصرفت بشكل آخر ولتشاجرت إلى أن انتهيت برصاصة في صدري

ليس غضبًا من نظراتك فحسب، بل لأنني لا أصدق كيف لشرذمة مثلك أن يمنعني من دخول بيت الله فقلت بصوت مسموع له :

«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ»

حاولت بتلك الآية أن أخفف شعور الغل الذي ينهش فيني

فانتبه أني أردد كلمات ما .. لكنه بالطبع لم يفهم مما قلت شيئًا

فنظرت إليه نظرة مليئة بالاحتقار وأخذت الأطفال وابتعدنا

وبدأت الأمطار تهطل ..

ظهرت السعادة على الصغيرين وأخذت أدعو الله من كل قلبي أن أدخل

وأتت النجدة ..

رجل كبير بشوش الوجه كان يراقب الموقف من بعيد

وعندما سرنا مبتعدين بحزن اقترب هو وتحدث مع الجندي

وبعد عدة دقائق أشار إلى الرجل بالاقتراب فذهبت إليه مسرعة

+ هيا الآن يمكنك الدخول .. أنتِ لستِ من أهل البلد ؟

- نعم أنا مصرية ..

+ مرحبًا بكِ في أرضنا .. أعتذر لكِ عما حدث بالنيابة عن أهلي كلهم

هيا تفضلي بالدخول

- لا داعي للاعتذار .. لكن ماذا قلت له

+ لا عليكِ نحن نعرف كيف نتفاوض معهم

- أشكرك كثيرًا

* ليودعني بابتسامة ويدخل *

فأدخل بعده أنا والصغيران

ركض الطفلان إلى باب المسجد ونظرت لهما بابتسامة متسعة

سلام يملأ المكان

تأملته غير مصدقه ما يحدث .. هل هذا حقيقي !!

هل أنا بالفعل في الأقصى

جلسنا داخل المسجد نتحدث حتى يحين موعد الصلاة

- أتعرفان .. الكثير قد يحسدوننا على وجودنا هنا

+ لما ؟

- لأن الصلاة هنا عظيمة للغاية

يُضاعــف الأجــر مــرات ومــرات ويُغفــر لنــا ذنــوب لا حــصر لهــا

ما رأيكم أن نذهب لنتوضأ

+ هيااا .

ودخلنا دورة المياة لتبدأ بين الأخوين ملحمة الوضوء

+ كلا يجب أن تغسل يدك أولًا قبل أن تمضمض فمك

= أنا أقلدك

+ ماذا

= أنت مضمضت فمك أولاً

+ لا لم أفعل ..

= حسنًا أبدأ من جديد وسأفعل مثلك

+ اتفقنا .. سأبدأ بيدي

= توقف ..

+ لما

= اليُمنى أولًا

+ أعرف

= لما بدأت باليسرى إذن

+ هذه اليُمنى ليست اليسرى .. يدك التى تأكل بها

= هذه يدي التي أكل بها

+ كلا نحن نأكل بالثانية

- توقفا ..

انظرا إليَّ فقط .. هذه هي اليد اليُمنى وهذه اليسرى

وأخيك الصغير لا يأكل باليمين ولا يكتب بها مثلنا

لذا اختلط عليه الأمر

فقط قلّداني فيما سأفعل

سنبدأ بكف اليد لنغسله ثلاث مرات ثم الفم .. الأنف.. الوجه

ثم اليدين إلى المرافق كلٌ ثلاث مرات

يليهـم الـرأس والأذن مـرة وأخـيرًا الأرجـل إلى الكعبـين ثـلاث ..

وانتهينا

= أمي .. اجعلي أخي يتوقف

+ أنا لم أفعل شيئاً

= كلا لقد بللتني

+ لم أقصد .. كنت أتوضأ فحسب

= كاذب .. رأيتك وأنت ترميني بالماء قاصدًا فعل هذا

+ أنت هو الكاذب

– يا الله..

هـلا توقفتـما أنتـما الاثنـان عـن الشـجار، وأسرعنـا كـي لا تضيـع علينـا صـلاة الجماعـة

وعندمـا انتهـت الصـلاة نظـرت إلى الخـارج ووجدتهـا مازالـت تمطـر، وأنـا أحـب المطـر

فهممـت بالخـروج لأغسـل روحـي مـن همومهـا وأكثـر مـن الدعـاء

- انتظراني هنا

+ أين ستذهبين يا أمي

- سأخرج لعشر دقائق

+ لا تتركينا وحدنا

- لا تقلقا سأكون هنا بالقرب من الباب.. حسنًا ..

+ حسنًا .

ذهبـت وفتحـت ذراعـاي لاسـتقبال الغيـث، وإذا بـذاك الصـوت الـذي لطالما انتظـرت تـرددات موجاتـه أن تغـرق شـواطئ قلبـي يقـول

+ يـا لـه مـن مـكان يجمعنا بعـد كل تلـك الأعوام مـن الحنين

❋ فاتسعت عيناي واستدرت ❋

- يــوســـف..

❋ تلعثمـت ونسـيت كل حـروف الهجـاء فأخـر مـا ظننـت أنـه ممكـن الحـدوث هـو أن ألقـاك هنـا..

نظـرت إليـه بدهشـة وشـوق.. شـوق كبـير بحجـم الكـون الـذي لا يتوقـف عـن الاتسـاع أحقيقـة أنـت !! .. ❋

- لقد التقينا قبل أشهر أليس كذلك ؟

❋ فقال بتعجب ❋

+ أجل عندما هاتفتك .. هل نسيتِ ..

* تنهدت وقلت *

– الحمـد لله .. كنـت خائفـة أن تكـون رؤيتـك مجـرد أمنيـة حققهـا لي خيـالي

ثم أكملت بخوف

هل يعقل أني أتوهم رؤياك الآن ؟؟!

* فأخذ يضحك وأجاب*

+ لا تخافي مازلتِ بكامل قواكِ العقلية

* فابتسمت في خجل *

+ أيحق لي أن أسألكِ سؤالًا ؟

– بالتأكيد ..

+ كيف تكونين هكذا ؟

* فبدت علامات الدهشة عليَّ *

– لا أفهم

+ بالطبع لا تفهمين فأنتِ لا تدركين كم أنكِ

كيف أقولها

لا أجد لكِ وصفًا ..

رائعة.. ثمينة.. ليس لكِ مثيل..

كُلها كلمات تقليدية

أنتِ يلزمك وصفًا يُفصل خصيصا لأجلك

* وصفًا يُفصل لأجلي أنا .. أنا!!.. يا الله لا أصدق.. أأأنت؟! .. أأنت قلت هذا؟!

وعلى عكس لسان حالي الذي أقام احتفالًا بالداخل ..

أظهرت عدم تأثري مع ابتسامة هادئة وقلت *

- ولما كل هذا المدح .. فأنا أضعف بكثير مما تظن ولستُ أبدًا كما تعتـ ...

+ أنا أحبك ..

- ماذا!!.. ماذا قلت!!

+ قلت أحبك.. أحبك

أحبك جدًا ...

* اختفت الابتسامة من على وجهي وتحولت إلى عينين أوشكتا على البكاء

وصرخت بغضب *

- أنت تكذب.. لا.. لا أصدقك ..

+ لا تصدقيني !!

حسنًا لا يهم.. يكفيني أنكِ هنا أمامي

* فنزلت الدموع *

- أتحبني حقًا..

كيف تحبني وتفعل هذا بي !!

كيف تحبني وتغيب عني كل تلك الأعوام.. أين كنت عندما احتجتك؟!.. أين كنت!

+ كنت بالقرب.. كنت بداخلك.. فلما كنتِ تبحثين عني وأنتِ تحتفظين بي

- اشتقت إليك.. كاد شوقي يقتلني..

أردت أن أراك تبتسم.. أردت الاطمئنان عليك

هل كانت أمنيتي مستحيلة لتلك الدرجة

+ أجل..

- لما يا يوسف ؟!!

+ لأجلكِ أنتِ..

أردت فقط أن تصير حياتك كما تمنيتي لها أن تكون.. حتى إن صارت بدوني

- أنا لم أتمنى سواك ..

+ وأنا لم أدخل أيامكِ لأختصرها فيني ..

أنـتِ حلمتـي بالسـفر والعلـم ولم أكـن لأمنعـك.. ولم أتمكن مـن أن أكـون معك

أنـت لا تعرفـين أني ذهبـت إلى المطـار يـوم سـفرك ورأيتـكِ وأنـتِ تبكـين.. رأيـت شـوقك وأمنيتـك برؤيتـي.. لكـن كان هـذا بالتحديـد مـا لا يتوجـب عليـكِ فعلـه

لم أرد أن تتراجعـي.. أردت أن أراكِ عظيمـة حتـى لـو دفعـتُ حبـي ثمنًـا لذلـك

ذاك الحب الذي كان يزيدني منكِ قربًا وخوفًا

جعلني أخشى أن أكون يومًا ذنبًا في حياتك أو أن تكوني ذنبي

لم أكن لأسمح أن يكون حبي حجاب بينكِ و بين الله

لـذا كان يجـب أن أبتعـد .. أو أن أتـركك تبتعديـن .. تبتعدين جدًا ..

لأن كل السبل مُغلقة ..

فمن ناحية أحلامك الكبيرة

ومـن ناحيـة أخـرى أنـا لم يكـن بإمـكاني أن أسـس لـكِ أسرة مطمئنــة..

ولا أن أحميها أو أتحمل نفقاتها ..

فبالـكاد كنـت أحمـي نفـسي مـن أن أُقتـل، وبالـكاد كنـت أؤمـن طعـام يومـي

فأفضـــل لـــكِ مليـــون مـــرة أن تعيشـــين في محاولـــة نســـيان حـــب مـــن أن تعيشـــين أرملـــة صغـــيرة وأم لطفـــل تتكفلـــين وحـــدك مســـؤليته..

ومـرت الأعـوام.. الواحـد تلـو الآخـر وثقـل حبـكِ داخلي أكثر..

وثقلـت الحيـاة وأجمعـت عـلى مصاعـب الدنيـا وسـلبتني قـوتي

لكنكِ هنا ..

* ويشير إلى قلبه *

كنـتِ أطهـر مـن أن يلوثـك غيـاب.. غيبـي سـنة.. اثنـان.. عـشر

ستبقين كما أنتِ بداخلي وليس لغيرك أحقية هذا القلب

* نظرت إليه بعينين متسعتين ودموعي تنفلت مني *

- أنا..

أنا أيضًا..

* وخـــارت قـــواي فجلســـت أرضًـــا .. فجلـــس أمامـــي والأمطـــار تفصـــل بيننـــا كســـتار *

- أحبك ..

+ أعرف

- تعرف !

+ أجل .. أعرف كل شيء

أعرف ما تشعرين، أعرف كم آلمتك وكم تألمت لألمك

وأعشق لقبي الذي أعطيتني إياه

«يوسف ..»

ولدومًا كنتِ أنتِ رغبة يوسف الوحيدة

- كيف .. ولما ؟؟

+ كيف

«شعرت بك»

وقرأت اسم يوسف في معظم الدفاتر التي كنت أخذها منكِ بحجة الاستذكار

كنتِ تكتبين في نهاية دفاترك خواطر ليوسف وكنت أدرك أنها لي

كان ما بين روحي وروحك شيئاً لا أعرف ماهيته

يخبرني دومًا أنكِ قريبة وأني سأراكِ

لكن صبرًا .. فلم يحن الوقت بعد ..

لما ..

لأجل كل ما أخبرتكِ قبلًا ولكي أراكِ سعيدة وأنتِ تفين بكل وعودكِ لي

واليوم أظن أنكِ أتممتها

- اليوم ! .. هل عرفت ما حدث ؟

+ أجل.. لقد كنت هناك.. وشاهدت خطبتك الرائعة سيدتي

كنت فخورًا بكِ كما لم أفعل من قبل.. حتى ذاتي لم أفخر بها قبلًا

لكن اليوم فخرت بها لأنها أحبت امرأة مثلك

كم أنتِ قوية..

- أنا قوية !!

إن كان لدي مثقال حبة من خردل قوة فسببها هو وجودك على هذه الأرض

+ إن كان لدي سبب لأكمل الحياة فهو أنتِ

- من أين تظهر لي ؟؟

+ لا يهم

- كلا أريد أن أعرف

+ أنـا من أرسـل الدعوة إليـكِ ويسرت كل أمـور دخولك هنا

- أنت !!

+ لا تخافي.. لست رجلًا» مهم» كما ستظنين

كل ما في الأمر أني برهنت لهم عدم مقدرتهم لي توقعي

هـم يعرفـون أن كـسري ليـس بالأمـر الهـين فخضعـوا لي حتـى يتسـنى لهـم فعـل ذلـك

- أأصبح لديك الكثير من الأسرار.. أم أني أتوهم؟!

+ ليسـت أسراراً.. كل مـا في الأمر أني سـعيت أن أكون قوياً..

قوي كفاية لأنصر من استنجدني أينما كان

فتركـت كل شـئ.. تركـت الصحبـة والعمـر والدنيـا والتفـوق والاسـتقرار والمنافسـة

وأخذت طريقي الحر في الحياة..

طريق الخوف والتعب بدايته ومنتصفه.. والقتل نهايته

أنـا لسـتُ بخائـف فكلنـا موتـى، والفـرق أني سـأموت وأنـا فخـور بتلـك الحيـاة التـي قضيتهـا رغـم أوجاعهـا.. لكـن.. شيء واحـد..

شيء واحـد لم أسـتطع التخـلي عنـه.. لم أسـتطع تركـه مـع كل مـا تركـت..

أنتِ ..

وأردتكِ بشدة أن تأتي

فسعيت أن تذهب تلك الدعوة إليكِ

لأني أعلـم أنـكِ أكثرهـم اسـتحقاقًا بهـا وأنـكِ ستسـتغلينها بشـكل مـا وانتظـرت أن أرى مـاذا سـتفعلين

لكنكِ تأخرتِ كثيرًا حتى ظننت أنكِ لن تأتي

وكانت المفاجأة عندما حضرتِ ومعكِ الطفلان

المـؤلم حقًـا هـو رؤيتـي لـكِ بـكل تلـك الجـروح والدمـوع والضعـف

التـي جعلتنـي ألـوم نفـسي بقسـوة ؛ لأني كنـت السـبب في كل هــذا

لم أعـرف كيـف وصلتـي إلى تلـك الحالـة، ومـن أيـن لـكِ بالقـوة لتكمـلي كل شيء تبدأينـه

دومًـا كنـت أنذهـل بـأن كل تلـك القـوة تتجسـد في هـذا الكائـن الضعيـف الـذي لم يكـن يومًـا ضعيفًـا ..

- أكمل.. فطالما اشتقت لسماعك ومعرفة كل ما تخفي

+ وأنا أتيت اليوم لأسرده كله عليكِ

- كيف عرفت أنه حان الوقت لنجتمع

+ وقـت اجتماعنـا لم ولـن يحـن.. لكنـي لم أسـتطع مقاومـة حبـي لـكِ أكثـر

ولم يعد بمقدوري الصمود وحدي..

- ولما رحلت يوم التقينا، لما قلت يومها أنك أخطأت

لما اختفيت بعدها وتركتني مع عذابي ليشتد على قلبي الألم

+ لأني حينها حقًا أخطأت

اتصلت فقط لأتأكد أنكِ عدتي مصر فأرسل الدعوة

لكن ما كان يجدر بي أن أقابلكِ، ما كان يجدر بي أن أراكِ

لأني أعلم أننا سنفترق من جديد وليس برغبة مني

وأردت أن لا يتبع لقاءنا أي فراق آخر

لذا انتظرت كل تلك الأعوام وجعلتكِ تنتظرين

حتـى أصبـح الرجـل الـذي يمكنـه أن يكـون لـكِ زوجًـا يحميـكِ ويرعـاكِ

سامحيني أني دائمًا أُزيد أوجاعكِ أوجاعاً..

- لم يؤلمني إلا خوفي عليك.. لم يؤلمني سوى ألمك أنت

+ لا أعرف كيف أعتذر منكِ أني جعلتكِ تنتظرين..

أني تركتك تواجهين قسوة العالم دون أن أكون هنا..

لكنـكِ لا تعرفـين كـم كان الأمـر شـاقًا عـليَّ، وكـم عـدد المـرات التـي قـررت فيهـا أن أنسـحب مـن تلـك التهلكـة وتـرك كل شيء والهـرب

لأكـون معـكِ.. لأخبئـك بـين أضلعـي.. لكنـي عجـزت عـن هـذا بئـس الرجـل أنـا..

- لا تقل هذا يا يوسف ففي أيامي كلها

كنت أنت وتحقيق وعودي لك أصدق أمنياتي وأجملها

* حينها توقف المطر واستطعت رؤية ملامحه بوضوح *

- يوسف..

هل يمكن لتلك اللحظة أن تستمر قرونًا عديدة

إيـاك وأن تختفـي مجـددًا.. أو أن تكـون حلـمًا جميـلاً ينتهـي بواقـع أكثـر قسـوة

لن أتمكن من الحياة بعدها صدقني..

+ لا تخافي.. سأظل بالجوار دائمًا لأجلك

أنتِ تجرين بداخلي مجرى الدم وتسكنين روحي

أين سأهرب منكِ.. بت سجينك..

وبتِ أنتِ سجينة قلبي للأبد .

«وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ»

قد وجب الشكر ....

:: لوالـــدي –رحمـــة الله عليـــه– ووالـــدتي في المقـــام الأول والأخـــير

:: للشـــخص الـــذي شـــعر فيَّ الموهبـــة فـــأصر إني لازم أكتـــب روايـــة وفضـــل يتابعهـــا معايـــا خطـــوة بخطـــوة حتـــى ظهـــرت للنـــور .. هـــو كان السـبب الأول في وجـــود الروايـــة دي بعـــد توفيـــق ربنـــا (هـــو عـــارف نفســـه بـــدون ذكـــر أســـماء)

:: للصديقـــة الـــلي دعمتنـــي وتعبتهـــا معايـــا في تصحيحهـــا لحـــد مـــا طلعـــت الروايـــة بالهيئـــة دي (هـــي برضـــو عارفـــة نفســـها بـــدون ذكـــر أســـماء)

:: لأصدقائـــي الـــلي كانـــوا أحـــرص مني شـــخصيا إنهـــا تطلع مميـــزة وادوني ملاحظاتهـــم علشـــان تطلـــع الروايـــة بأحســـن صـــورة

:: للإنســـانة الـــلى مكنتـــش بتبطـــل زن عـــلى دماغـــي علشـــان أخلصهـــا .. أكـــتر واحـــدة قـــرأت الروايـــة وفضلـــت تتابـــع معايـــا كل لحظـــة علشـــان مســـتعجلة عـــلى نشرهـــا أكـــتر منـــي

:: لـــكل صديـــق وصديقـــة شـــجعوني آخـــد الخطـــوة دي ووثقـــوا فيـــا

انتوا عارفين نفسكوا من غير ما أقول أسماء برضو =D

انتوا كنز كبير عندي ..

بحبكوا ....

:: شـكر خـاص للكاتـب الصاعـد بقـوة جـدًا بـإذن الله « محمـد عبـد النعيـم «

صاحب رواية «أحببت صعيدي «

إنــت حقيقــي ســاعدتني كتــير بنصايحــك وتوجيهاتــك وقرايتـك للروايـة مـرة واتنـين وملاحظاتـك ولـو كان للروايـة دي نجـاح فأنـت سـبب كبـير في ده

(جعلــك الله عونــاً وســنداً لــكل مــن احتاجــك ليســتند عليــك ^_^)

التواصل مع داركتاب

Email : darkitabone@gmail.com

fasbook : darkitabone

البدج داركتاب

٠١٠٩٧٥٥٣٣٢٨